رواية

صافي صافي

سما، ساما، سامية

دار الآداب

سما، ساما، سامية

رواية

صافي صافي

الروايات المنشورة:

1- **الحاج إسماعيل** (1990). رواية، اتحاد الكتاب الفلسطينيين- القدس (فازت بجائزة اتحاد الكتاب 1989م).
2- **الحلم المسروق** (1991). رواية، دار الكاتب- القدس.
3- **الصعود ثانية** (1994). رواية. دار الكاتب- القدس.
4- **اليسيرة** (1996). رواية. اتحاد الكتاب الفلسطينيين- القدس.
5- **شهاب** (2001). رواية. اتحاد الكتاب الفلسطينيين- القدس.
6- **الكوربة** (2005). رواية. اتحاد الكتاب الفلسطينيين- القدس.

سما

جلست هادئة على الكنبة المقابلة، جالت بنظرها أنحاء البيت لتتأكد أن لا أحد فيه غيرنا، بدت جدية أكثر من المعتاد، حاولت التدقيق في عيني، وسألت بنرفزة: لماذا أتيت اليوم؟

- لأنك طلبت ذلك. هل نسيت؟ الساعة الآن الحادية عشرة ظهرا.
- ولماذا طلبت منك أن تأتي؟
- وكيف لي أن أعرف؟ أنت التي طلبت أن أجيء، فجئت.
- ولماذا طلبت ذلك؟ ألا تعرف؟
- طبعاً لا أعرف، أنا أنتظر أن تخبريني بما تودين قوله.
- أنت تسبب لي كل هذه المشاكل، ولا تعرف سبب مجيئك؟
- أية مشاكل! أنا أحترمك جداً، وأقدرك جداً، ولا يخطر ببالي أن أسبب لك أية مشاكل.
- بل أنت سبب كل مشاكلي، أنت قلبت كياني، جعلتني شيئاً آخر، لماذا جئت؟
- جئت بناء على طلبك، وإن شئت أن أذهب، فسأنصرف الآن.
- قم اذن.

وقفت، هامّاً أن أسير، قفزت أمامي مباشرة، تدقق النظر فيّ وكأنما تود لو تلكمني بيدها المنقبضة. فإذا بها مرة واحدة تمسح دموعها، وتأمرني بالجلوس. انصعت لأمرها وجلست.

- ألا تعرف الآن ما فعلته بي؟
- لا والله لا أعرف، بل أنا متافجئ من تصرفك، ما بك؟
- لا تحلف بالله، فأنت لا تعرفه إذ تتصرف معي هكذا، وأنا مثلك، فنحن نعرفه حيناً وننساه أحيانا أخرى.

لم ألتفت لما قالته. سألتها: ما بك تبكين؟

غطت عينيها بيديها. ثم دققت النظر في السجادة تارة واختلست واحدة إلي.

صرت مضطربا لا أعرف ماذا أفعل أزاء هذا الموقف الإنساني. هل أقترب وأحضنها، أم أواسيها وأعتذر عن أي تصرف لم أقصده؟ ولكني لا أستطيع تقدير رد فعلها. قد تقبل، أو لعلها تدفع بي وتصرخ في وجهي. هل أنسحب بهدوء؟ ربما يعتبر هذا التصرف نذالة، فكيف لا أساعدها وهي بحاجة لمن يفعل؟ نعم هي تحتاج مساعدة. الأمر واضح. قلت بهدوء: هل تودين الحديث الآن أم أعود إليك بعد أن تهدأي؟

- بل اجلس، لا بد من "بط الدمل".
- أي دمل يا سما؟ أنت طبيبة مشهورة، مخلصة لعملك، ولا تقبلين أن يعاني أحد من المرض دون معالجته.
- لست أنت المريض، أنا المريضة، وانتظرتك طويلاً أن "تبط الدمل"، ولم تفعل، وسأقوم بذلك أنا أمامك.

راحت في نوبة بكاء جديدة، تسمح دموعها قبل أن تتطلع فيّ، وذهبت إلى الحمّام لتغسل وجهها، ولم تكد تمر ثوان، فإذا بالدموع تنهمر مرة أخرى، ودخلت في نوبات متقطعة من البكاء.

شدّت جسدها، وتطلعت فيّ بغضب. قالت:

- لا تحسب دموعي ضعفا.
- لا. أنت قوية في كل شيء، أعرف ذلك.
- وما زلت قوية، حتى في هذه اللحظة التي تراني فيها.

- كل الناس تعرف شخصيتك، وتتجنب الاحتكاك بك، فأنت لا تتركين شـــاردة ولا واردة إلا وتلتقطينها، وتردين عليها.
- نعم أنا كذلك، لكني لم أبك منذ فترة طويلة، ولم أبك أمام أحد. هل تعرف لماذا أبكي؟
- لا، ليتك تخبريني.
- بل تعرف السبب وتتجاهله أمامي.
- ماذا أفعل الآن يا سما؟

لحظات، كانت حبات المطر ما زالت تتساقط في الخارج، تنقر زجاج النافذة الغربية، وريـــاح خفيفة تضرب الباب. وسما تستعجل الكلمات فلا أنطق. أنا أحب المطر، ويطربني صوت أول نزوله، ويرتعش جسدي والنسيم يداعبه، حينها أصمت، ولا أحب لأحد أن يكلمني، بلا حركة أو صوت أتابع تساقطه، أحاول ألا أرمش فتهرب قطراته مني، أحب مراقبة المطر، قطراتـــه تثير فيّ مشاعر الرقة والألفة. أنا خلقت مع الرطوبة، وجئت منها، وســـأعيش بعيـــداً عـــن الجفاف.

تترك حبات المطر بقعاً على الزجاج ثم تتجمع وتنزلق كما نهر صـــغير، تتبعهـــا أنهـــار لا تتوقف. الجو دافىء رغم المطر، وتنبعث السخونة في أوصالي من كل ناحية، يشتعل دمـــي، وأحس وجهي وقد أحمر. تسعدني بدايات الشتاء مغلفة بالدفء. توقف هطول المطر، أصـــبح رذاذا، كأنما انقطع ليتنفس، ثم يأتي من جديد.

نسيت سما كما يبدو. نظرت إليها فإذا بها صامتة مثلي وتتأمل في لا شيء.

قالت بصوت حنون:

– أنا أحبك.

- ماذا قلت؟
- ما سمعته، ألا تسمع؟
- أنا أحب المطر، بل بدايات المطر.
- أنا لا أحب البكاء، ولن أبكي أمام أحد، ولكني بكيت أمامك.
- ماذا أفعل؟
- قل لي إنك تأتي إلي لأنك تحبني.
- أنا أحترمك.
- لا يكفي.
- أنا أقدرك.
- لا يكفي.
- نحن نرتبط بقضية؟
- لا يكفي.
- قضيتنا هي الانتفاضة، والمشاركة الجماهيرية.
- ألا ترى أنني أنتفض، وأنني أود أن أشاركك.
- نحن نعمل معاً، من أجل الناس.
- ومن أجلنا نحن الاثنين.
- طبعاً.
- نعم، نحن جزء من الناس، ونحب الوطن. أنا وزعت نشرة "الانتفاضـــة" مـــن أجلـــك، وشاركت في المسيرة من أجلك وأجلي. وهتفت في وجه الجنود على الحاجز من أجلنا.
- أقول لك بصراحة: دعيني أفكر فيما قلته. لم يخطر ببالي من قبل.

- وهل ترددك عليّ بهذه الكثافة كان عبثاً، نحن نلتقي مرة على الأقل كل يوم، وتريد أن أصدق بأن ما بيننا هو مجرد نضال! ومن أجل الشعب!
- بل من أجلنا أيضاً. أنا استمتع بالمشاركة في فعاليات الانتفاضة، أحقق ذاتي حين أكون بين الناس وأشاركهم.
- وأنا استمتع بأن أكون معك.

يبدو أن لا مهرب مما تقوله سما، هي ملتزمة بعملها في العيادة الطبية حتى الساعة الثانية بعد الظهر، وأنا أصر أن ألتقي بها كل يوم، نتحدث في برامج "القيادة الوطنية الموحدة"، واتجاهات التغيير وإمكانات قيادتها نحو تحقيق انتصار. لكني لم أفكر أبدا فيما قالته. ظلت بالنسبة لي تعني الكثير، أحب سماعها وهي تبدي رأيها، أو تنقل آراء الناس، حتى أهالي الأطفال ظلت تناقشهم فتفرح بما كوّنته من انطباعات، وعن حماسة الناس واستعدادهم للتضحية.

قالت: اسمع، هذا البيت ظل مغلقاً لسنوات طويلة. لا يفتح هذا الباب لأحد، أنا ألتقي الناس خارج البيت، في العمل والشارع، لكني لا أستقبلهم في بيتي ولا أزور أحدا. هذا الباب يحدد الصورة التي يعرفها الناس عني، الطبيبة في العيادة. أنا هنا شيء آخر. أنا داخل الباب سما، وخارجه دكتورة سما. أنت الوحيد الذي أقبل منه أن يناديني باسمي مباشرة. حتى أخوتي وأخواتي وأبناؤهم جميعاً يسبقون اسمي بدكتورة. وحين ناديتني باسمي مجردا كسرت الجدران والحواجز من حولي، جعلتني صفحة شفافة أمامك، أنت تخترقني، أنت ترى داخلي، وأنا سعيدة بذلك. واللوم عليّ وحدي إذ سمحت لك بالدخول. كنت راضية بما أنا فيه، أعيش في راحة تامة بعيدة عن الناس. كنت أحس بذاتي، أنا الدكتورة، وأنت نزلت عليّ من السماء، جئت مثل الوحي لتقول لي أن أقرأ، وأن أكتب، وأن أرسم، وأن أرقص، وأن أغني، وأن أحلم. تصوّر أني لم أحلم منذ حصلت على شهادة ممارسة الطب، لكني بدأت أحلم منذ عرفتك، صرت أرى الأشجار ترقص وتغني، والعصافير وهي تداعب القمر، والشمس تلعب بأشعتها، وتتجدد. صرت أرى ما لم أره في الأشياء من قبل. أنت الذي فعلت ذلك. لذلك أحمل لك مشاعري، فما قولك؟
- لا أعرف بماذا أجيبك، أعرف أنك صرت جزءاً مني، ومن عائلتي، ومن كياني السياسي، ومن مصدر ثقافتي في الطب وغيره، لكني لم أفكر فيما تقولينه.
- وبعد كل ذلك لا ترى ما أراه! أنت سبب تعاستي إن لم تكن سبب فرحي. أنت سبب هزيمتي إن لم تكن سبب انتصاري. أنت سبب جنوني إن لم تكن سبب عقلانيتي.

صمتّ، لا أدري ماذا أفعل مع امرأة جاءتني من حيث لم أخطط. أنا أعيش حياتي من أجل السياسة والعمل فيها، أتابع الحركة النقابية، والفعاليات الشعبية منذ بدء الانتفاضة، وأشارك في وضع الخطط السياسية، حتى صرت جزءاً من المطبخ السياسي لقيادة الانتفاضة. كانت أسئلتنا تدور عن: كيف يكون القرار لنا لا للاحتلال؟ وكيف يكون القرار للقوى السياسية لا للقيادات التقليدية؟ كيف نحقق انتصاراً إعلاميا بعدما حققناه على الأرض؟ كيف نقطف ثمنا سياسياً لكل هذا الحراك السياسي؟ لكني لم أفكر في سما وبما تفكر هي فيه.
قالت:
– اسمع: أنا طبيبة أطفال، أعرف حالاتهم وأشخّص أمراضهم دون حديث. أعرف ما في دواخلهم بلمسة، أو بنغمة صراخهم وتنفسهم، أو بالنظر في عيونهم. أكتب لهم الدواء، يتناولونه فيشفون. يحاول الأهل التدخل لكني أهمل ما يقولون، وأحاول الاتصال بمرضاي مباشرة.

- لكني لست طفلاً.
- أنت تعتقد ذلك. الطفل لا ينتهي في الإنسان بمجرد فطامه ومشيه وبلوغه، الطفل يبقى، وفيك الكثير من الطفولة.
- وهل تعامليننـي كطفل؟
- عفواً، كل منا طفل. وأنا أبكي أمامك الآن، أكون طفلة. وحين تنزلق الكلمات منك دون رقابة تكون طفلاً. وحين تتحرك عيناك، ويحمّر جفناك، وتحك شفتيك، وتمسح على جبينـــك، تكون طفلاً.
- ألهذه الدرجة تراقبينني؟
- وأنت تراقبني، ولولا حركاتي العفوية أمامك، لما رجعتَ منذ التقينا أول مرة.
- ماذا أفعل؟

خرجت من بيتها متعباً. كنت في غاية الإنهاك أكثر مني حين أجمع الحجارة وأسد بها طريق الدوريات العسكرية، اكثر مني حين يلاحقني الجنود، فأهرب إلى الجبال أقطعها واحـــدا وراء الآخر، أكثر مما لو أنني تعرضت للضرب بالعصي وبأعقاب البنادق، ومما لو كنت عاملا في محجر أو في تعبيد الطرق، أو عامل نظافة أطوف الشوارع. لو كنـــت محاصـــراً بمثقفـــين يخالفونني الرأي، لو كتبت ضد معتقداتهم الأساسية، لو كنت في مناظرة سياسية، لما شـــعرت بمثل هذا التعب.

***

يا الله ما هذا التعب. كنت أستمع في جلسة لمدربة تعلم زملائي كيف يفرغون طاقاتهم تحت الضغط. قالت إن الإنسان يشبه المواسع، يشبه المكثف، له طاقة محددة على احتمال الشحنات، يستقبل أقل من قدراته، وله حد أعلى في الاستقبال، ولا بد له من تفريغ الشحنات الزائدة وإلا انفجر. وكما في الدوائر الكهربائية هناك أساليب للتفريغ، فإن للإنسان أساليب التفريغ أيضـــاً. وراحت تعدد الأساليب، أن نجلس فوق مقعد ونغمض أعيننا، وننحني قليلاً إلى الأمـــام كمـــا الصلاة، ونتنفس بعمق، نأخذ شهيقاً، ونطلق ما نستطيع من الزفير. نفعل ذلك مرات، ونســـير هنا وهناك، نراقب طائراً حط على غصن شجرة، ونناجيه، نحادثه، نناديه، ونرمي له ببعض الحبوب. نستمع إلى أغنية من الزمن الماضي، نستمع إلى أغاني فيروز الهادئة (قديش كان في ناس، على المفرق تنطر ناس، ..الخ)، (وحدهن بيبقوا مثل زهر البيلسان، وحدهن بيقطفـــوا أوراق الزمان، بيسّكروا الغابة، بيضلهن مثل الشتي، يدقوا على أبوابي، ..الخ)، (نطرّونا كتير على موقف دارينا، لا عرفنا أساميهم، ولا عرفوا أساميناً، على الموقف ركاب وليل ..الـــخ)، وقالت إنه يمكننا أن نتمشى في الجو الرطب، ونسير بأقل من الهرولة، ونحن نتنفس بعمـــق. ويمكننا أن نأخذ حماماً دافئاً بعد أن نكون قد أتعبنا جسدنا لبرهة. وقالت إنه يمكننا أن نســـتمع لنشرة الأخبار مرتين أو ثلاث في اليوم الواحد، نقلل من ذلك لتصبح مرة واحـــدة عصـــراً، ونستمع فيما قبلها وبعدها لبرامج اخرى، اجتماعية، وأنثوية، وعن الطبيعة. ويمكننا أن نتلهى بزراعة الأرض حتى بخضراوات بسيطة مثل النعناع والبقدونس. أو نقضي بعـــض الوقـــت ونحن نعتني بالورود، نعالجها ونسقيها، ونغير أماكن توزيعها في البيت وحولـــه، أو نســـافر بعض الوقت خارج البلاد، ونعيش حياة الناس هناك كما يعيشونها هم. ويمكننا...

لم أستطع ضبط نفسي وأنا أستمع إلى هذه السيدة، فنحن لسنا مرضى نفسيين، ولا نعيش على هامش المجتمع، وما نعيشه لا يشكل ثقلاً علينا، بل مصدر فخر وعز ومبعث آمال لنا.

- وماذا تفعل اذن؟
- أخرج إلى الشارع، أكون مع الناس، وأشاركهم فرحهم وحزنهم، غضبهم وسكينتهم.
- ماذا تفعل؟
- أكون مع الناس.
- تعمل على تفريغ نفسك باكتساب مزيد من الشحنات؟
- نعم. بل أزيل شحنات، وأستبدلها بأخرى مختلفة.

هزت رأسها دون أن تجيب.

قلت: ربما الطرق التي ذكرت تتماشى مع طبيعة المجتمعات التي تعلمت فيها، لكنها لا تنسجم مع مجتمعاتنا.

- وهل هناك فرق بين الإنسان في أمريكا والإنسان في أوروبا والإنسان في هذا الوطن؟
- نعم، أعتقد هذا.

هزت رأسها وقالت: ربما.

***

كنت منهكاً، حين أقبلت من حي المصيون في اتجاه مركز رام الله. فإذا بطلاب معهد المعلمين يخرجون إلى الشارع، ويغلقونه، ويهتفون. ركنت سيارتي في ناحية، وانضممت إليهم، أغلقت الشارع معهم، وهتفت. أطلق الجنود قنابل الغاز والصوت، وبعض الطلقات. كانت سيارات الإسعاف تطلق زواميرها وهي تحاول الاقتراب منا. انتهت المظاهرة ببعض المصابين بعد أن تدخلت وكالة الغوث لحماية مبانيها وطلابها.

***

لا أعرف إن كنت أفرح أم أحزن، أبكي كما فعلت سما أم أغضب. لنفرض أنها تحبني فماذا أفعل بحبها لي؟ وماذا تفعل بحبي لها؟ أهو مجرد قول، أم أدفع الثمن! وما هو الثمن؟ هل أسير في هذا الطريق إلى نهايته، أم أقطعه من أوله، أم أمسك العصا من المنتصف؟ لا أعرف.

قبل أن أصل البيت، كان الجيران يتجمعون في ساحات بيوتهم، كل منهم يمسك بفأس أو معول، ينظفون الأرض، ويقلمون الأشجار. سلمت عليهم، ودعوني لشرب الشاي. كان الرجال ونساؤهم وأطفالهم، كل يقوم بعمل ما. شربت الشاي، واستعرت معول أحدهم، ورحت أفعل مثلهم. نناقش إن كانت القيادة الموحدة قد وحدت الناس فعلاً، وإن كانت تضم كل الفصائل الفاعلة على الساحة، وإن كانت قد أوضحت العلاقة بين المنظمة في الخارج والقيادة في الداخل. سألت صاحب البيت، وهو تاجر، له متجر لبيع الثياب في شارع الأمراء في رام الله، سألته إن كان يعمل بأمر من القيادة الموحدة، أم برغبته هو. تطلع فيّ كما المتشكك في سؤالي، وكما الحكيم الذي يود انتقاء العبارات المناسبة. قال: شوف، أعرف أن القيادة الموحدة، طالبت الناس بالتوجه لاستصلاح أية قطعة أرض مناسبة، لكن بالنسبة لي وجدت لدي الوقت لأنظف الأرض، وأزرعها، فالمحال مغلقة، وليس لي عمل آخر، ولا أستطيع المشاركة في مظاهرات الشباب، ألقي الحجارة، وأهرب، وأناور. فتنظيف الأرض من حول بيتي هو نظافة لبيتي، وهذا لا يختلف مع توجهات القيادة الموحدة. ربما فعلت ذلك أيضاً لو لم تطلب منا العمل.

قلت: أنا حزين اليوم، استشهد عيسى أبو السبع.
قالت: أنا حزينة اليوم، استشهدت لانا أم عائدة.
قلت: كان عيسى فتى في ريعان شبابه. قاد مجموعة أخرى من زملائه. تحول إلى أسطورة في شجاعته. واجه الدوريات الإسرائيلية من شارع إلى شارع. سد عليها المنافذ، وأحرج قادتها أمام مسؤوليهم. اليوم، حاصروه، بين المنارة والمستشفى، قرب تربية رام الله، وهناك قنصه الحاكم العسكري. حاول الشباب انقاذه، لكن الجنود أصابوهم بالرصاص. ظلت الدوريات حوله وهو ينزف حتى لفظ آخر أنفاسه. خسارة.
قالت: كانت لانا، سيدة أنيقة، جميلة، مثقفة. كان بيتها محطة لكل النساء والرجال، يناقشون أمور رام الله، وكيفية مساعدة المحتاجين، وتحقيق التكافل الاجتماعي، تزور المصابين في المستشفى، وتزور أهالي الشهداء وتعزيهم. كانت جالسة على البلكونة تشرب قهوة الصباح هي وجيرانها، فإذا بالرصاصة تخترق رأسها. كان دمها ساخناً، وظلت القهوة ساخنة حتى الآن.
بكيت، وبكت، وبكينا معاً على عيسى ولانا.
انقطعت دموعها مرة واحدة، وقالت: هل يبكي الرجال؟

- كما ترين.
- أتحاول إيهامي بالبكاء؟ أتحاول أن تستدر عطفي عليك؟
- أنا هكذا، أبكي، وأفرح، وأرقص، وأنام، وأغضب، وأحزن، وأشرب القهوة.
- هل نشرب القهوة معاً؟
- بل نصنعها معاً، ونشربها، ونتحدث.

ونحن نصنع القهوة، اقتربت بجسدها مني، اقتربت أكثر، تطلعت فيّ، وقالت: هل يمكن أن أطلب منك شيئاً؟

- نعم.
- أريد أن أحضنك.

وقبل أن أجيبها، أقفلت مفتاح الغاز، ووقفت قبالتي، وحضنتني طويلاً، طويلاً. لامس خدها خدي، كان حاراً أكثر مما يجب، وكانت حارة كما يجب. تركت نفسي لها كما تشاء، لم أفعل شيئاً. كنت جامداً لا اقوى على شيء، ليس فيّ أية إثارة، بل ألامس جسداً ملتهباً، صارت تقبلني في كل مكان، وهي تهمهم، وتعصرني، وتضمني أكثر، وتتأوه، وهي تقول: لو تعرف كم أحبك.
غطى الضباب المكان، كان رطباً أكثر مما كان قبل خمس دقائق. كان البيت كله حبيس الضباب، وتساقطت حبات مطر خفيف على النافذة، ربما لتوقظنا، ربما لتوقظها، فأنا لا أدري ماذا أفعل. أبرقت فأضيء ما حولنا في البيت، وأرعدت، وانهمر مطر غزير. تعالت ضرباته، ولم يعد بالإمكان الذهاب إلى أي مكان.
شربنا القهوة بلا كلام. كان الجو شاعرياً أكثر مما كان في الخارج، وكانت القهوة حارة، وإذناي حارتين، ويداي ترتجفان. دخنت سيجارة، وأخرى وأخرى، وهي فعلت كذلك. وجلسنا، نتابع ما تبقى من القهوة في الإناء.

- هل نصنع قهوة أخرى؟
- ربما يكفينا هذا اليوم.
- هل تشرب من فنجاني؟
- ما زال فنجاني يحتفظ ببعض القهوة.

- هل أحضر لك طعاما؟
- لا، فأنا لا أحس بالجوع.
- ماذا تريد مني أن أفعل؟
- ابقي كما أنت.
- هل أجلس بجانبك وأحضن يدك؟
- كما تشائين.

غابت الأحداث قليلاً عن جو البيت، صرت منفعلاً أكثر مما لو كنت في مسيرة أو مظـــاهرة. أحسست بأن بي طاقة لم ألاحظها من قبل. كنت أود أن أبقى هناك، دون حراك، دون شـــيء، دون طعام، دون شراب، دون حديث.

- هل كنت تبكي فعلاً على لانا وعيسى؟
- ألا تصدقين؟
- ما زلت متشككة.
- بل صدقي.
- ماذا قررت بالنسبة لي؟
- أن نكون أصدقاء.
- والاصدقاء يحضنون بعضهم بعضاً.
- أن نكون أصدقاء، ورفاق.
- والرفاق يعطف كل منهم على الآخر، ويواسون بعضهم.
- أن نكون أصدقاء، ورفاقا، وأعزاء.
- والأعزاء يغارون على بعضهم بعضاً.
- أن نكون.
- وها نحن نشعر بكياننا. هل ستأتي مرة أخرى؟
- إذا أردت.
- في مثل هذا الوقت.

صحوت من نوم الظهيرة فزعاً، فأنا لم أخرج هذا اليوم، والضباب الذي رأيته حـــولي، كـــان نتيجة سخونة في جسدي، كنت مصاباً بالانفلوانزا. تعرّقت، وشعرت ببرودة تسري في جبيني وكل جسدي. ارتحت قليلاً، شربت شاياً ساخنا، وشوربة عدس ساخنة. حملت ملصقات أعلام وانطلقت إلى مركز المدينة، فاليوم هو يوم العلم. وكل ما رأيته كان حلماً.
قررت أن أذهب مشياً على الأقدام، وألصق علماً على كل سيارة ألاقيها في طريقـــي. كانـــت أعلاماً صغيرة يمكن أن أخبئها في جيوبي، وأن أتخلص منها في حالة وجود أية ملاحقة.
قبل أن أصل المنارة، كنت أسمع صوت الجنود وهم يحطمون زجاج السيارات التي ألصـــقت عليها الأعلام. توقفت عن إلصاق أخرى على السيارات، وأستبدلت أعمدة الكهرباء والهـــاتف بالسيارات. ما إن وصلت حتى رأيت شباناً، يرفعونه فوق إحدى البنايـــات. طـــوق الجنـــود المبنى، وأنزلوه تحت وابل من الحجارة، وحين أمسكوا به، أنشد الجمع: موطني، موطني ..
صرخ الجنود عبر مكبرات الصوت أن يرجع كل منا إلى بيته، وأن التجول ممنوع في هـــذه المنطقة، ورحنا نطلق صيحات تسخر منهم. أطلقت صفارات الإنذار من الدوريات، وأطلقـــت صيحات من الجمع. داروا حول شارعي "ركب" و "الأمراء"، ودار الشباب والشابات وراءهم.

وجدت نفسي استقل سيارة أجرة، وأكون بجانب سما.
قلت: أأنت هنا؟
- نعم.
- ولكن اليوم هو يوم العلم.
- وزّعت الأعلام على الجيران.
- وماذا يفعلون بها في بيوتهم؟
- يلصقونها على أبواب بيوتهم، أو يبروزونها.
- لكننا طبعنا كل هذا العدد، لتكون الأعلام في الشوارع، وليست في البيوت. إنها ملصقات أعلام، وليست أعلاماً حقيقية.
- المهم أن يعرف كل منا أن اليوم هو يوم العلم.
- ألا تخرجين إلى الشارع؟
- طبعاً، سأخرج في يوم ما. إلى أين؟
- بين الناس.
- وأنا هنا بين الناس.
- أريدك أن تتحرري من سجنك.
- أخشى ظلام الشارع.
- البيت هو الظلام، السجن له أربعة جدران وأرضية وسقف.
- سأخرج في يوم ما. الآن أنا أقرأ في الكتب.
- وماذا تقول الكتب؟
- تقول إن الأبجدية من صنع الرجال.
- كيف تكون كذلك وهي من تراثنا؟
- تراثنا الذي نقلوه إلينا هو من صنع الرجال.
- وما هي علامات الرجولة في الأبجدية؟
- ألا تلاحظ أن "أب" في الأبجدية جاءت قبل "أم"؟
- وماذا لو كان العكس؟ هل في ذلك مشكلة بالنسبة لي؟
- لا يمكن لأجدادنا أن يفعلوا العكس، فهم قاموا بذلك عن وعي.
- ولكن لا بد أن يسبق الأول الثاني، بغض النظر عمن يكون أولاً، لا يمكن أن يكونا معاً.
- الأمر لا يتوقف عند الأبجدية، إنه منظومة من التحيز للذكورة، في الأفعال، والضمائر، والإعراب، والألفاظ، وكل شيء.
- وكيف يكون في الإعراب؟
- ألا ترى أن الفاعل يكون مرفوعاً، والمفعول به يكون منصوباً، والمجرور يكون مكسوراً؟
- وماذا في السكون؟
- أن تبقى حيادياً. أن لا يكون لك رأي في المرفوع، والمنصوب، والمجرور.
- لكنه يكون أحياناً مجزوماً.
- أرأيت؟ يكون مجزوماً.
- وماذا نفعل؟
- أن يكون لك موقف مما يجري.
- وها أنا ذا أتخذ موقفاً مما يجري، وأحاول أن أغير الواقع.

- ماذا ستغير من عشرات آلاف السنين من التراث؟
- هل أقول: قالت جدتي بدل قال جدي؟
- جداتنا تأثرن بالواقع الذي صنعه الرجال، وبالتالي كن متحيزات للرجال.
- ماذا أفعل يا ربي؟
- فكر أنت بما تفعله، لا تلعب بعواطف الناس.
- لا أفعل.
- بل تفعل، حتى وأنت تجادلني في تحيزات اللغة.
- هل نستطيع تغيير قواعد اللغة؟
- بل نستطيع فهم ما وراءها، لنغير الواقع.
- احترت معك يا سما.
- لأن الأمور ما زالت غامضة لديك.
- أنت غامضة يا سما.
- أنت تتعامى عن الواقع.

كنت عندها حسب الموعد المحدد. كان الباب مفتوحاً، وصرخت من الداخل: أنا في الحمـــام، سأخرج بعد قليل.
انتظرت في الصالة، على أن تخرج، أم تريد أن أذهب أنا إليها! بقيت كما أنـــا دون حـــراك، وفي انتظار أية مفاجآت. بقيت مكاني أدخن ما شاء لي، ولم اقترب من المدفأة، فالدم يزيد من حرارة جسدي، ودقات قلبي لا تتوقف. هل أغلق الباب من الداخل! قلت لنفسي: لا، لتغلقه هي إن شاءت، فأنا مجرد ضيف. صاحت: هل عملت القهوة بعد؟

- لا، عندما تخرجين.
- اذن انتظر قليلا.

كان باب الحمام مفتوحاً، فليس هناك جدار بيني وبين صوتها. استمرت في الحديث:

- هل شاركت اليوم في مسيرة أهالي المعتقلين؟
- طبعاً، هل شاركت أنت فيها؟ لم أرك.
- لا، بل كنت أراقبها من نافذة العيادة من وقت لآخر، أغلقت النوافذ جيداً، لـــئلا تـــدخل رائحة الغاز إلى العيادة.
- وهل كان لديك زبائن في هذا الوقت؟
- لا، لكن الزبائن ليس لهم موعد، ممكن أن يأتوا في أي وقت.

خرجت وهي تجفف شعرها، وتلف جسدها بالمنشفة من صدرها حتى أعلى ركبتيها. استمرت في الحديث كما لو كنا في أي مكان.

- أتعرف، استمتع جداً والماء ينساب على جسدي. أتجدد. أرى في الماء إنســاناً آخـــر، أداعبه ويداعبني، يلمس كل جزء من جسدي، وألاحقه ليبقى، لكنه ينساب مسرعاً مثل الرجال.
- وهل الرجال مثل الماء؟ الماء ينزل دائماً إلى أسفل، ليشكل قوة عظيمة، هـــي الأنهـــار والبحار والمحيطات.
- لكنه في النهاية يسكن.
- البشر كلهم يسكنون في النهاية. هذه هي طبيعة الحياة.
- أحب الحياة الحية، المتحركة، اليقظة، فأنا لا أحب السكون.
- لكنك تسكنين في هذا البيت منذ ثلاثين عاماً على ما أعتقد.
- أنا مجبرة على ذلك.
- اخرجي إن شئت.
- أحب أن أخرج بفكري، لكن الرجال يحاصرونني بنظراتهم.
- اسمعي يا سما: أنت لا تعرفين الرجال، تحاكمينهم غيابياً. لم تتزوجي، لم تعاشـــرينهم، فأنت لا تعرفينهم.
- بل عرفتهم، عرفت رجالا أجانب وعربا، أعرفهم.
- العلاقة العابرة ليست كافية لأن تحكمي على الرجال.
- لم تكن علاقات عابرة، كانت مستمرة.
- هل شاركك أحدهم حياتك ليل نهار، تذهبان إلى العمل صباحاً، وتأتيان بعـــد الظهـــر، لتقوما بأعمال التنظيف والطبخ، وتذهبان إلى السوق لتتسوقا، وتزوران الأصـــدقاء والأهـــل، والناس؟ وتشاهدان التلفاز، وتختلفان، وتتفقان، وتلتقيان، وتبتعـــدان، وتنغمســـان فـــي حيـــاة الآخرين، وينغمس الآخرون في حياتكما؟ هل تشعرين بآلام ابتعاد الزوج عنك؟ هل تعـــرفين حاجاته، ويعرف حاجاتك؟

- دون أن تكمل، لا حاجة إلى معرفة كل هذه التفاصيل. أنا أعرف جزءا حقيقيا في الرجل، والباقي أعرفه من خلال الناس، فليس بالضرورة أن أكون قد جربت كل شيء لأعرفه. لو كان ذلك كذلك لما كان هناك العلم، والكتب.
- وماذا تعرفين في الرجل؟
- أعرف أنه ينظر إلى المرأة من خلال السرير.
- لا حياة زوجية دون سرير.
- لكنه يفكر في السرير أولاً وأخيراً، يرى المرأة من خلال فرجها.
- وأنت ماذا ترين في الرجل؟
- أحب أن يكون إنساناً متعاوناً مشاركاً يقبل بي كما أنا.
- هناك رجال مختلفون كما أن هناك نساء مختلفات.
- النساء هن نتيجة تربية الرجال.
- وتربية النساء؟
- تربية النساء هي من وجهة نظر الرجال.

طال الحوار على هذا النحو، ولا أعرف له نهاية. كلما جئت من هنا، طوقتني من هناك، وكلما هربت إلى هناك، أجدها هنا.
- لقد طلبت مني أن آتي، وها قد أتيت.
- لا أريد الجنس على كل حال. أريد أن نلتقي، وأن نتحدث كما الأصدقاء على حد قولك.
- وأنت ما قولك؟
- لينظر كل منا إلى العلاقة كما يريد، هذا فيه احترام لحرية الفرد.
- موافق.
- أريد أن ألبس ثيابي، ونصنع القهوة، ونتحدث.

غابت بضع دقائق، وجاءت بفناجني قهوة، وضعتهما على الطاولة، ثم قالت: دقائق، وسأحضر القهوة.
- لكنك قلت إننا سنصنعها معاً.
- لا ضرورة لذلك. فقط أجلس هنا.

جلست مقابلي، وقالت بما يشبه الأمر: تعال هنا. رحت. أمسكت بيدي، وراحت تداعبها، وتقبلها، وأحنت رأسها على كتفي. غريبة هذه السيدة. كانت عارية قبل قليل في الحمام، وكان باب الحمام مفتوحاً، وخرجت بروب الحمام، وراحت لتبدل ملابسها، وتصنع القهوة، وتجلس بجانبي هكذا، وأنا لا أعرف ماذا أفعل. وضعت يدي على كتفها، قالت: لا تلمس جسدي.
- لن ألمسه. لقد كنت عارية قبل قليل، لماذا لم تأتيني كما كنت؟
- قلت لك إن الرجال يرون النساء في السرير.
- أنا لا أريد السرير، ولكن أريد أن أعرف ماذا تريدين.
- أريدك هكذا، لنشرب القهوة الآن.
- كما تريدين.
- اسمع، أنا أخجل من جسدي، أحب أن ألمسه دون أن أراه، ولا أحب أن يراه أحد.
- ألم يره أحد؟
- لا أذكر.
- ولكنك تقولين إنك عرفت الرجال.

- لم يروا جسدي.
- وكيف حدثت الأمور.
- كما تحدث الأمور. اذهب وأجلس على مقعدك، لنتحدث في أمور الدنيا.
- أريد أن أسألك: هل لي أن أطلب منك كما طلبت مني؟
- نعم، فنحن أصدقاء على حد قولك.
- اذن أراك غداً.

***

- ها قد جئت بناء على موعدنا.
- لا أريدك اليوم، لا أريد أن أراك.
- لكننا اتفقنا أن نذهب لزيارة أحد المصانع الوطنية الجديدة، نتعرف على إنتاجهم، وصاحبة المصنع في انتظارنا.
- اذن سأذهب، ولا تطول زيارتنا.

حين عدنا، وقبل أن أودعها، قالت: أنا أكرهك.
- لماذا؟
- لأنك سبب مأساتي.
- وما هي مأساتك؟
- هل تعرف بأني ذهبت بالأمس بعد رحيلك إلى رجل، ونمت معه؟
- نمت معه؟
- نعم.
- لماذا؟
- هكذا، لانتقم منك.
- لكني لم أفعل شيئاً؟
- لأنك لم تفعل شيئاً.
- وماذا كان يجب أن أفعل؟
- لو كنت طفلاً لأخبرتك، لكنك تدعي أنك بالغ.
- أنا احترت معك.
- أخرج من البيت، لا أريد أن أراك.

مسحت دموعها، ووقفت متحفزة. خرجت كما أنا.
ماذا أفعل مع هذه السيدة؟ لم أسئ إليها. تريد أن تجعلني خادماً، قم، أجلس، اذهب، تعال. يا أله. لماذا أنا مجبر على تلك العلاقة؟
وصلت مركز المدينة، فإذا بالمحال التجارية مغلقة تماماً، والدوريات تجوب المنطقة، معلنة منع التجول. الجو ضباب للغاية، ومدى الرؤية قصير. انحرفت باتجاه بيتي، فإذا بدورية راجلة أمامي. أشاروا لي أن أتوقف. ازدادت دقات قلبي، ففي حقيبتي الكثير من نداءات القيادة الموحدة قبل أن توزع، وهناك أعداد من نشرة الانتفاضة تحت المقعد. خفت. قال: أطفئ محرك السيارة، وتعال. ذهبت وراءه، فإذا بكومة حجارة في الطريق. قال: أزل هذه الحجارة التي وضعها النوّر. وقفت لبرهة وأنا أراقب جنودا آخرين يأتون برجال آخرين، ويطلبون منهم الشيء نفسه. قلت في نفسي: لا بد من تنفيذ الأمر درءاً لتفتيش سيارتي. اليوم هو يوم تنفيذ الأوامر. لأنفذ أمرهم، وأفلت بالبيانات والنشرات.

كنت أقف معتصماً مع آخرين أمام مؤسسة الحق، محتجين في ذلك على انتهاكات الجنود الدروز ضد امرأة تم إجبارها على الركوع أمام جندي ومص عضوه. حدث ذلك على مرأى زوجها وأولادها، وعلى مسمع الجيران والجنود الآخرين. تجمعت نساء كثر من مخيم الأمعري، ومن حوله، وكذلك قيادات نسائية. كنا نحمل لافتات تستنكر هذا العمل، ووقعنا على عريضة موجهة إلى القيادة الدرزية لضبط جنودها، والرجوع إلى عروبتهم، ودورهم التاريخي في الثورات العربية في بلاد الشام.
كانت تقف ورائي، تجاهلت ذلك، فإذا بها تدق على كتفي، وتقول: لأول مرة أعرف أنك أطول مني.

- ربما كنت طويلة وأنت صغيرة.
- أنا لم أكبر بعد، ما زالت روحي تعيش الصبا والحيوية.
- لكن جسدك لا يطاوعك، ليس بالضرورة أن ينعكس الداخل على كل الخارج.
- أنا أحب السمار، وأحب سمرة بشرتك.
- ربما لأنك نمشاء.
- وما هي هذه النمشاء؟
- شديدة الشقار.
- هل هذا مصطلح ذكوري؟
- لا أعرف.
- أحب نحافة جسدك واستقامته.
- ربما لأنك بدينة.
- لماذا لم تقل بدناء؟
- خشيت أن يكون مصطلحا ذكوريا.
- أحب شبابك.
- ربما لأنك اجتزت مرحلة الشباب.
- هذا مصطلح ذكوري.
- حين تجدين مصطلحاً آخر سأستخدمه.
- أحب اخلاصك لأسرتك.
- ربما لأنك دون أسرة.
- بعدين معاك؟ أتسمع كل هذا الغزل وتواجهني بحقيقتي؟ تعيرني ببعض الشحوم التي ستزول قريباً، وتعيرني بسمارك!
- لا أعيرك بشيء.
- إنك تنتقم مني.
- لا أحب الانتقام.
- اذن تتحداني.
- لا أحب أن أتحداك.
- ها قد خرجت من العيادة، وأتيت فقط لأراك.
- ألم تأتي من أجل الاحتجاج على ممارسة الجنود في الأمعري؟
- جئت من أجلك، ومن أجل أهالي الأمعري.
- أجئت ماشية أم بالسيارة؟
- أيهمك هذا؟

- إلى حد ما.
- المهم أني جئتك.
- أجئت لتعتذري؟
- جئت لنخرج معاً.
- أين؟
- إلى البر، إلى الطبيعة.
- وماذا سنفعل؟
- سنأخذ معنا بعض القهوة، ونشربها هناك.
- ألا يوجد شيء آخر نشربه؟
- سنشتريه من الطريق.

في الطريق إلى عين قينيا، ونحن ننزل المنحدر ببطء، قابلنا حاجز عسكري. سأل عن وجهتنا، أجبنا الجنود أننا نود زيارة أصدقاء لنا في القرية. ذهب بهوياتنا لفحص أسمائنا، فإذا به يتردد قبل أن يقول لنا: يجب أن ترجعا قبل السادسة مساء، وإلا بقيتما هناك.
لم يكن الجو صافياً لنرى الجبال بخضارها، ولم تكن الطريق سالكة تماماً بسبب حواجز الحجارة التي وضعها الشباب في الطريق، فلم يتسن لنا التحدث في موضوع آخر غير الوضع العام.

- هل تعتقد أن هذه الانتفاضة ستقود إلى شيء؟
- لا أعرف، ولكنها ستؤدي إلى شيء ما، على الأقل تغيير في عقلية الناس.
- وماذا سيتغير في عقليتهم؟
- كسر حاجز الخوف من الاحتلال مثلاً.
- وهل هذا ينعكس على كسر حاجز الخوف الاجتماعي؟ أن لا تخاف البنت من أبيها؟ ومن كبير العائلة؟ ومن الحكام؟
- لا أعرف، ولكنهم ينقلون الانتماء من العائلة إلى الأحزاب.
- لكني أرى أن الاحزاب أصبحت ملجأ للحمائل والعائلات.
- هل هذا أمر سيء أم جيد؟
- طبعاً سيء، لأن العائلات أقوى من الأحزاب، تعرف مصلحتها، تبدلت القيادات الميدانية ضمن التوازن العائلي.
- كيف عرفت ذلك، وأنت لا ترين سوى زبائنك في العيادة؟
- من الناس في العيادة، وفي الشوارع.
- وهل تخرجين إلى الشارع دون علمي؟
- وهل أنت وليّ أمري؟
- لا، لكني مسرور من أنك تختلطين بالناس. ليس كل الناس.
- ومن هم الذين لا تود الاختلاط بهم؟
- الذي نمت معه الأسبوع الماضي.
- وهل تعرفه؟
- نعم، إنه يوسف.
- لا، ليس يوسف، وكيف توصلت إلى هذه النتيجة؟
- حدسي يقول ذلك.
- لم أنم مع يوسف ولا مع غيره، إنها مجرد قصة وهمية، أردت خداعك بها.
- يعني تفكرين في الخداع؟

- الرجال هم الذين يعلّمون النساء الخداع، ولولا خداع شهرزاد لشهريار لماتت من أول ليلة عرفها فيها.
- ولماذا الخداع؟
- حتى نعيش في هذا الجو السيء.
- هل عدم زواجك هو الذي جعلك ترين الرجال سيئين؟
- لا، الرجال هم أمراء الحرب، ونحن أميرات السلام. هم أمراء القتال، ونحن أميرات الحوار. هم أمراء التجريد الفكري، ونحن أميرات الوقوف عند التفاصيل.
- وكيف نغيرهم؟
- إذا كنت أنت لا تستوعب كل ما أقوله، فكيف يستوعب ذلك الذين لا أعرفهم.
- وهل الحب بين الجنسين جاء عبثاً؟
- لا، هو حاجة للاثنين، رغم أن الرجل يعتبر المرأة مجرد وعاء لتفريغ طاقته، ولإنجاب الأطفال.
- ألا تلاحظين أن الغرب بشكل ما يمارس الكثير من حكم الرجل على المرأة أيضاً؟
- الغرب ليس مقياساً لي، المقياس هو الحياة نفسها في الشرق أو في الغرب.
- متى يكون ذلك؟
- حين نود ذلك.

تمهلت بسيارتها، وانعطفت يميناً، فإذا نحن أمام بيت مهجور. بيت قديم، ربما كان يستخدمه أهله قبل عام 1967 ثم هجروه لبعده عن القرية. ربما يستخدمه الرعاة في الشتاء. يتقدمه بئر ماء، وآثار أغنام مرت من هنا. حوله الكثير من العشب. راحت تسألني عن أسماء بعض الأعشاب لترى إن كان هناك تطابقاً بين الأسماء المستخدمة في فلسطين، وعن بعض الأعشاب التي يستخدمها المسنون في علاج أمراضهم. وكما الدليل السياحي، راحت تخبرني عن كيفية اختيار مواقع البناء في الماضي، وأن الخيار هو خيار ذكوري، هدفه الحماية والدفاع والهجوم، هدفه تعزيز سلطة الرجل، فبابه يطل على الشارع، وعلى الناحية الجنوبية بالذات. في قاع البيت تكون الحيوانات، وفي الرواق يكون سكن الزوج وزوجته وأولاده. وراحت تدلل على طول النوافذ بما يناسب طول الرجل، وليس المرأة، وعلى أخشاب الأبواب والشبابيك، التي اختيرت بعناية لتمنع السرقة.

قلت: وما العيب أن تكون الأبواب من هذه الأخشاب القاسية التي تمنع السرقة؟

- ليست المشكلة في منع السرقة، ولكن الحقيقة هي أن السراقين هم من الرجال. هل سمعت أن هناك سارقات ليل؟
- ولكن هناك نساء يسرقن.
- يسرقن في وضح النهار، يدخلن البيوت من أبوابها، ويخرجن من أبوابها.
- إنها سرقة على كل حال.
- لكن أساليب إدارة السرقة تختلف. أتصور لو حكمت النساء لانتهت السرقة.
- كيف ستنتهي؟
- لأن المرأة صاحبة التكافل الاجتماعي، لا ترضى أن يموت غيرها من الجوع وهي شبعة.
- وهل الرجال يختلفون؟
- نعم، إنهم أصحاب تكديس الأموال والأراضي والذهب والأولاد والنساء، وكل شيء.
- إلى أين سنصل في حديثنا هذا يا سما؟ ألم تقولي إننا سنشرب القهوة؟

- نعم، اجلس هناك على هذه الراوية، وأنا على تلك ونتحدث ونحن نشرب القهوة.

انصعت لأوامرها مرة أخرى دون أن أدري. خشيت أن أفسد كل شيء، والأهم أني لا أستطيع العودة إلا بمرافقتها، فليس هناك من مواصلات إلى رام الله.

قالت: لنتحدث قليلا، فأنا أود أن تكون علاقتنا واضحة، ليس فيها لبس من ناحيتي أو ناحيتك.

- وأنا أريدها واضحة.
- ما هو الوضوح الذي تقصده؟
- يجب أن نظل أصدقاء.
- لقد اكتشفت أن كلينا حريص على هذه العلاقة. أنت لا تود أن تؤذيني، ولا أود أن أؤذيك.
- لكنك تؤذينني، وفعلت ذلك.
- لأني حريصة عليك.
- ما هو الحرص الذي تمارسينه؟
- جئتك في الاعتصام، وجئنا هنا لنتحدث في الطبيعة التي تحب أن تراها.
- لكننا هنا في بيت أشبه بالمغارة، إنه بيت آخر لا يشبه بيتك بالضبط، لكن له أربعة جدران. لماذا لا نخرج لنجلس على الصخور على سفح هذا الجبل؟
- لأن الدنيا برد.
- أترين الطبيعة في هذا البيت الجبلي؟
- إنه جزء من الطبيعة، حتى لو غطيناه بغربال.
- وبيتك جزء من الطبيعة.
- أتود أن نرجع إلى بيتي؟
- لا، لكني أتساءل.
- اسمع، نحن أصدقاء، وأنا أحترم رأيك، الصداقة شيء ثمين. تنازلت عن حبي لك، وصادقتك، لكن الأصدقاء يمكن أن يقبّلوا بعضهم، ويحضنوا بعضهم.
- ربما.
- أنا أود أن أحضنك الآن.

نهضت من مجلسها، وحضنتني، ليس بحرارة ذلك اليوم، ولكنه تعبير عن علاقة ما. أريد فقط منك هذا.

ونحن في الطريق، قالت: اسمع، أنا لدي خيارات أخرى إن لم ترد هذه العلاقة، هناك من يريدني، يريد أن يحضنني، ويشعر بأنفاسي. أنت ربما لا تحتاجني، لكني أحتاج على الأقل هذه الدرجة من العلاقة.

صرخت بها: إلى متى ستجعليني أشعر بالغيرة؟ مرة تقولين: نمت مع أحدهم، ومرة أخرى: أحضنه ويحضنني. حتى لو لم أفعل معك أي شيء، فأنا لا أحب أن استمع إلى مثل هذه الأقوال.

- أرأيت؟ إنك تشعر بالغيرة، يعني تحبني، والصداقة التي تتحدث عنها مجرد أقوال.
- ماذا سأفعل؟
- سنتحدث في هذا الأمر مطولاً مرة أخرى.
- وهل سنظل نتحدث في أسس هذه العلاقة التائهة؟
- سنجعلها أكثر رسوخاً من الجبل الذي كنا عليه قبل لحظات.

اقترحت أن نقوم بعمل طوعي مشترك مع الزملاء.
وافقت.
سألتها: ما هو العمل؟
- ندهن جدران البيوت.
- بأي بيت نبدأ؟
- ببيتي.
- لا بأس.
كنت في بيتها ضحى اليوم التالي. كانت قد اشترت الأغراض اللازمة، وكنت هناك رغم منع التجوال.
سألت: كيف جئت؟
- درت حول المدينة، وجئت.
- كيف جئت؟
- اكتشفت أن منع التجول ينطبق على مناطق بينما لا ينطبق على أخرى.
- كيف جئت؟
- اكتشفت أنهم لا يفرضون منع تجول، بل يختصرون عدد الناس المتجولين إلى الحد الأدني.
- كيف جئت؟
- المهم أني جئت.
- قل لي كيف جئت؟
- قلت لهم إني طبيب.
- يعني انتحلت شخصيتي؟
- قلت إني نسيت إشارة الطبيب في البيت، وهناك من يطلب مساعدتي.
- وهل ستعود؟
- كما جئت.
- طلبت من يوسف أن يأتي، لكنه اتصل هاتفياً، وقال: هناك منع تجول، وعندي ضيوف.
- أتعرفين من هم ضيوف يوسف؟
- طبعا، هي منتهى لا بد.
- ضيفته الدائمة.
- بل صديقته الدائمة.
- أشعر بالقرف حين أزوره.
- المهم أنه علاقتيهما لها رونق خاص.
- ما هو هذا الرونق؟
- يبنيان علاقة مميزة، لا يهمهما المجتمع كثيراً. متزوج، وهو غير متزوج.
- إنه عاطل عن العمل، يستغلها لآنها تعمل، وتصرف عليه.
- إذا كانت تحبه، فلماذا لا تصرف عليه؟
- هل سيتزوجها فعلاً؟
- نعم.
- ولماذا يقيم علاقات جنسية مع آخريات؟
- لا أعرف، لو سمحت لا أريد أن اسمع هذه الحكاية.

- أين الدهان؟

أمسكت بفرشاة، وأمسكت بالأخرى. عملنا، وناقشنا معنى منـــع التجـــول المقطـــوش الـــذي يفرضونه. شربنا البيرة، وأكلنا. وضحكنا، وغنينا. انهمر المطر بغزارة.

- لو علم الجيران أننا ندهن البيت، لضحكوا منا.
- لو علم الجيران أننا نتسلى، لضحكوا منا.
- هل سندهن بيوتا أخرى؟
- طبعاً، ربما في أول الصيف.
- ولماذا بيتك الآن؟
- حتى أراك.

انقطعت الكهرباء عن الحي، ولم يعد للدهان معنى، رغم أنه الأبيض، شربنا القهوة، وودعتها.

زرتها في اليوم التالي، فإذا بيوسف يقوم بأعمال الدهان.

قالت: لم تتقن عملك يوم أمس، وها هو يوسف يكمله.

- بل يرقعه.
- ليس لهذه الدرجة، ولكنك قضيت طوال النهار، وأنت تمسك بالفرشاة، تعمل، وتتحدث.
- فعلت ما أستطيع فعله.
- وها هو يوسف يكمل العمل.

لم أشرب القهوة، وودعتهما.

لا أعرف كيف أنهي هذه العلاقة المشوهة، لا بد من افتعال مشكلة، وأنام مرتاح البال. علاقة سياسية تحولت إلى علاقة عاطفية. لا أعرف بالضبط ما تريده مني. أتريد أن أخبرها إني أحبها؟ افرض أني قبلت بذلك، فهل هذا نهاية المطاف؟ ماذا أقول لمسؤولي في الحزب؟ هم كلفوني بمتابعتها، وأنا لا استطيع ذلك في مثل هذه الأجواء. هل لو تابعها شخص آخر، لفعلت الشيء نفسه؟

يبدو لي أنها على وشك أن تنهي هذه العلاقة المشوهة من وجهة نظرها أيضاً. كنت أحس ذلك من خلال ترددها في تحديد معالم علاقتنا. تريد الحب أحياناً، وتريد الجنس أحياناً أخرى، وتريد الصداقة كملاذ لا بد منه. لكنها تود أن نظل نتحدث ونتحدث عن طبيعة هذه العلاقة، أن ننظّر حول العلاقة أكثر من العلاقة نفسها. هي تتشكك في كل كلمة أقولها، هي لا تثق بالرجال، وأنا من الرجال. هي تريد أن تتخلص من الظلم، وترى فيّ علامات الظلم. هي تنتقم لجنسها الذي لا ذنب لي فيه.

قالت: أتعرف أن الطب الحديث أثبت أن المرأة ليس لها علاقة بحالة الجنين إن كان ذكراً أم أنثى؟

- سمعت بذلك، ألا تعتقدين أن الاثنين هما اللذان يحددان هذه الحالة؟
- لا، أنا طبيبة أطفال، وأعرف ذلك. جنس الجنين يحدده الرجل، وهو يقلع ما يزرع.
- أراك تتحدثين في الزراعة، وأنت لا تعرفين عنها شيئاً.
- نحن النساء نعرف الزراعة أكثر من الرجل، نحن الذين خلقنا المرحلة الزراعية في تاريخ البشرية، وجاء الرجل ليستولي عليها، فانحرفنا إلى زراعة الورود والنعناع، بينما سيطرتم أنتم على زراعة الأشجار.
- هل سنظل نناكف بعضنا بعضاً؟
- ماذا تريد أن تقول لي هذه المرة؟
- أريد أن أخبرك بأني استشرت رفاقي في أمرك، ونصحوني أن أحافظ فقط على العلاقة السياسية.

نهضت من مكانها، وصرخت: كيف تجرؤ على إخبار أحد؟ إن هذه العلاقة تخصنا نحن. نحن اللذان نحدد بدايتها ونهايتها. نحن اللذان نحدد تفاصيلها. أنا أشعر بالاستخفاف من نفسي لأني كشفت لك داخلي، فكيف تجعلني مكشوفة أمام آخرين؟

- لا تكبّري هذا الموضوع. لقد أخبرت واحداً فقط، ونصحني بما أخبرتك به.
- وماذا يدريني أنه لن يخبر آخرين؟
- لا أظن. هو يريد أن تستمر علاقتنا النضالية.
- أأستطيع معرفة من هو؟
- نعم، إنه عامر.
- عامر؟ عامر!
- ما به؟
- عامر بالذات لا يمكن أن يصدقك، فهو يعرف جديّتي. لا يمكن أن يصدقك.
- طلب مني أن أظل حذراً لئلا ننزلق في علاقة تنتهي بسرعة.
- ولكن ألم تخبره كيف استدرجتني إلى حبك؟
- لم أستدرجك، بل كنت أبني علاقة سياسية.

- بل كنت تفعل ذلك من خلال شخصيتك وأنت تناقش الجديد في الانتفاضة، وأنت تطرح مبادرات لنطورها معاً، وأنت تحرك قسمات وجهك حين تتحدث، وأنت تستخدم لغة جسدك حين نلتقي.
- لم أقصد ذلك.
- قصدت أم لم تقصد، أنت السبب.
- وماذا أفعل؟

صمتت برهة، تطلعت نحوي، ثم قالت:

- أنا أيضاً أخبرت صديقتي بأمرك. وضحكت.
- يعني أنت الأخرى كشفت أمري أمام آخرين.
- وماذا في ذلك؟ هي مؤتمنة أكثر من عامر صاحبك، بل مسؤولك.
- وماذا قالت؟
- قالت: على بركة الله. لا تفعلي شيئا ستندمين عليه مستقبلاً. الصداقة جميلة، والحب أجمل. الحياة ستنتهي بالنسبة لنا مع انتهاء عمرنا. نحن خلقنا من أجل أن نعيش، وأن نحب الحياة، وأن نحب الناس، ولا يمكن أن نقاتل الرجال بأدواتهم، بالقتل وبالضرب، بل بالحب.

****

التقينا ثلاثتنا، أنا وهي ويوسف. جلست مستفزا، وهي تحاول أن تجد بيننا لغة مشتركة، موضوعاً مشتركاً، فكان نقابة العمال هو الموضوع.

قالت لي: ها هو يوسف أمامك، ما هو تبريرك لانسحابه من ترشيحه لرئاسة النقابة؟

- لا أعرف بالضبط، ولكني أعرف أنه كان يلتقي بسعد، الرئيس الحالي للنقابة، رأيتهما أكثر من مرة.
- هل تقصد أن سعد دفع رشوة ليوسف؟
- لم أقل ذلك، ولكني أعرف أنهما كانا يلتقيان.

جن جنون يوسف، وهو يستمع إلى هذا التأويل. أبقى السيجارة في المنفضة، وقال بحديّة: هل قصدت ذلك بالفعل؟ أنا لا يمكن أن أرتشي حتى من ..

- أنا لم أقل ذلك، ولست خائفا منك.
- يجب أن نقر بذلك الآن.
- لم أقل ذلك.

فقالت: لكنك لمّحت بذلك دون أن تقوله مباشرة.

- لم أقل ذلك، وأنت تعرفين. على كل سأنسحب، وناقشا الأمر كما تريدان.

تركت المجلس، وأنا أعرف أنها ظلمتني مرة أخرى. أغلقت باب البيت دون أن أنتظر أحداً يودعني.

جاءني زياد، جلس مقابلي.
- أرى أنك تلتزم الصمت منذ فترة.
- بل كما أنا.
- أنا أعرفك تمام المعرفة.
- مثل أمي.
- لنقل مثل أمك.
- ما الذي تغير فيّ؟
- كل شيء.
- ماذا بالذات؟
- أنت عندك مشكلة، ولا بد أنك ستخبرني بها.
- سأخبرك في الوقت المناسب.
- اسمع هناك معجبات كثيرات بالرجل، تعجبهن حيوية الإنسان، ورقيه، وحديثه. وأنت واحد من هؤلاء، وأنا كذلك، لكن كن حذراً.
- كيف؟
- جميل أن يكون للإنسان أصدقاء، وصديقات. أنا أستمتع بالحديث مع النساء، وأحب أن يمدحنني. أشعر أن سما تمدحك، وتتلهف للقائك. بت تلتقي بها كل يوم، أصبحت جزءا منك، وأصبحت جزءا منها.
- وأنت؟
- أنا جزء منكما الاثنين.
- هل أخبرتك بشيء؟
- لم تقل لي صراحة، لكني شعرت بأن هناك اشكالاً ما يجب أن تحله.
- ما هو؟
- هي تحبك وتكرهك.
- سمعت ذلك منها.
- هي تحبك.
- أعرف.
- وأنت لست بالصراحة نفسها كما في السياسة.
- ما العمل؟
- كن صديقها.
- عرضت عليها ذلك.
- وهي لا تستوعب ذلك.
- هي تسيطر عليّ، وأنا لا أحب علاقة سيطرة الآخر عليّ.
- بأي معنى تسيطر عليك؟
- تريدني كما تريد هي، ولا تريدني كما أريد أنا.
- لا لقاء بينكما؟
- بل هناك علاقة مشوشة.
- من الصعب مصادقتها.
- من الصعب مصادقتها.

أرق

خلدت هي للنوم مبكرا. قمت أنا الآخر من مقعدي. أطفأت التلفاز. ألقيت ما بيدي. أطفأت الأنوار، وانسللت تحت الغطاء. التصقت بها. التصقت بها أكثر. مددت يدي نحوها، وبدأت بمداعبتها، فإذا بها تدفعني بيدها فجأة ، وتقول بشكل حازم: الجو حار، وأريد أن أنام. انكفأت على نفسي. حاولت أن أمتص الإهانة. كنت على وشك أن أنسى كل ذلك، وأنام. كنت على وشك أن أحرد. كنت على وشك أن ألقي بالغطاء بعيدا وأشعرها بأنها لا تحسن معاملتي. كنت على وشك أن أعلنها معركة. أعاني وتعاني من نتائجها، كنت على وشك أن أقاطعها، أن أنام بعيدا عنها، أو أنام على طرف السرير، لكني عرفت بأني سأعاني من هذا الألم النفسي. ربما سأعاني أكثر منها، فهي أدارت ظهرها لي ونامت، لكني كنت مشتعلا في داخلي. كنت مشتاقاً إليها أشد الاشتياق. كنت كمن يتضوّر من الجوع وهي التي تمنعني من الاقتراب من الأكل. كنت كمن ضاع في الصحراء، وجف حلقه عطشاً ونبع الماء أمامه، وهي التي تمنعني من الشرب. كنت مهتاجاً وعروقي تنبض. وددت أن أفعل أي شيء من أجل إطفاء ناري. أدرت جسدي نحو الجهة الأخرى، ورحت أصارع أفكاري المتناقضة، أأقبل بهذا الواقع أم أحقق حاجة نفسي وجسدي بأي ثمن؟ كنت على وشك أن أفعل أي شيء دون مقدمات. قلت في نفسي: لأتريث قليلا وأفكر بالأمر قبل اتخاذ أية خطة. خفت أن أتسرع وأشعر بعدها بالندم. لم أكن أرغب في قطع شعرة معاوية هذه، لكني لم أكن أرغب في أن تظل هذه الشعرة بهذا الشكل. حاولت أن أصعد فوق المشكلة قليلا. وقفت على السطح ورحت أنظر إلى المشكلة من نقطة فوقها، لكن ما العمل! لقد كنت أجد نفسي في كل مرة أغوص إلى الأعماق فأصاب بالتوتر والهيجان، فأتذكر قراري بالصعود، فأصعد ثانية، وأجد نفسي جزعا. المشكلة تجرني إلى تحت، أغضب وأتأهب لخوض المعركة، فأكبح جماع غضبي وأروح أتطلع إلى المشكلة كما لو أنها تحدث مع غيري، كما لو أنها تحدث مع أحد أصحابي، ورحت أستعرضهم وأكتشف ردات فعلهم في هذه الحالة. مر شريط سينمائي، وأنا أقف عند كل واحد منهم. وجدت الذي سينام فورا دون نقاش، وجدت الذي سيناقشها في الأمر وربما يحذرها، ووجدت الذي سيغضب ويثير مشكلة يعرف بها كل أبناء الحي، ووجدت الذي سيقاتل قتالا حقيقياً وربما يخنقها وهي نائمة. رحت وجئت، هبطت وصعدت، ثرت وهدأت. أغمضت عيني وفتحتهما، علت دقات قلبي، ونزلت. كل ذلك حدث معي، أما هي فقد أغمضت عينيها ونامت.

توصلت لنتيجة خلال أقل من دقيقة، اقتنعت تماماً بالنتيجة وقررت أن أنفذها. اقتربت منها بلطف وبدأت أكلمها، وكلما امتنعت عن رد فعل مشاكس، وجدتني اقترب أكثر. كنت كمن يحاول تدليل طفله رغم تمنعه، همست في أذنها كلمات جميلة تود في العادة سماعها. سردت لها قصة جميلة ربما تساهم في تغيير مزاجها وأعدت نكتة مفرحة. أفاقت جيدا من نومها، ولاحظت أنها تبتسم، فاقتربت أكثر وأكثر. حكت لي هي الأخرى ما حدث معها في النهار: ماذا قال الجيران، وماذا قال الأطفال، وماذا شاهدت على شاشة التلفاز.

حاولت أن أغير الحديث لما هو أكثر لطفا، لكنها بدأت توصيني بأن أشتري أغراضا للبيت في الغد، وراحت تعددها، ولولا أن النور كان مطفأ لطلبت مني أن أسجلها لئلا أنساها. حاولت أن أغير الحديث ثانية، واقتربت منها أكثر، فقالت محتدة: ماذا تريد! ألا تفهم ماذا قلت! أريد أن أنام، أنا تعبة.

ابتعدت عنها مرة واحدة. وجدت نفسي في الطرف الآخر من السرير، كمن لمس شيئا باردا أو ساخنا بالصدفة. لسعه فابتعد عنه، كمن كان يسير وفوجئ بحفرة كاد يقع فيها. كمن هجمت عليه زوبعة فالتم على نفسه اتقاء لشرها. كمن سار في طريق واكتشف فجأة أن وجهته مكان آخر. انقبضت على نفسي. كتمت غيظي. ابتلعت إهانتي. تحملت الضربة التي أطاحت بي. تطلعت في زوايا الغرفة، ثم قررت أن أنام. أغمضت عيني، وغطيت كل جسدي محاولا عدم

الاقتراب منها. يكفيني ما حدث. سرحت بي أفكاري، ماذا أفعل؟ هل أرد لها الإهانة؟ لماذا حدث ذلك؟ إنها تعبة كما قالت. حتى لو لم تكن كذلك، فهي لا ترغب فيما أريده. لماذا أرغمها على شيء لا تريده! إن فعلت فسيكون اغتصابا، حينها لن أشعر أنا أيضاً بالمتعة. نعم، لأعترف بأنها تعبة، إنها تعبة، يجب أن اقدر حالتها. لكن، لماذا لا تقدر هي الأخرى وضعي؟ لقد كنت جمرة حمراء كلما هبت عليها الريح ازدادت اشتعالا، فجاءت هي وألقت عليها دلو ماء. دلقته دلقا فطشيت. نعم هذا أحسن تعبير عما حدث. هل هناك صيغة أخرى لتحليل ذلك، خاصة وإنها ليست المرة الأولى التي تفعل بي ذلك؟

كان الجو حارا. لم احتمل الغطاء. فتحت عيني وأغلقتهما. تقلبت على جانبي هذا ثم ذاك، انتظر أن أنام ولم أنم. فتحت عيني ثانية ودرت بهما في أركان الغرفة. خيل إليّ أن الهواء لا يدخل البيت مطلقا. قمت وتأكدت أن النوافذ تسمح بدخول الهواء. وقفت عند النافذة وحاولت أن أنظر إلى الخارج من خلال ثقوب الحاجز الحديدي. شعرت بأنني في سجن وأنا أمسك القضبان. أمسكت بها بشدة وهززتها. سمعت صوت نباح كلب يقترب، بل كانت عدة كلاب تلاحق بعضها بعضاً وتلهو. كانت تسير في الشوارع الخالية حرة دون أن يزعجها أحد، تروح وتجيء وأنا ألحظ خيالها أمام الضوء. رأيتها تقترب من عمود الكهرباء، وتبول هناك. كانت ترفع رجلها وتبول أو تصطنع ذلك. تغيب قليلا ثم ترجع. وددت لو أخرج وأتفرج عليها عن قرب، لكني بصراحة خفت. خفت أن تهاجمني وأنا وحدي ولا أجد معيناً. شعرت أنا الآخر بحاجتي إلى التبول. أشعلت نور الحمام، وعدت محاولا أن أنام. وجدتها تغط في نوم عميق، فاتجهت نحو صالة البيت. فتحت التلفاز، فإذا ببرنامج ديني ختامي يدعو من خلاله الشيخ أن نتحلى بالصبر، أن نتصرف كما لو كان يوم القيامة غدا. أن نبتعد قدر الإمكان عن ملاهي الحياة وأن نذكر الله ونعمه، وأن نحمده ونطلب منه أن يلهمنا الصبر. انتهى بث التلفاز، بحثت عن محطات أخرى، فوجدت مشاهد غير واضحة بلغة تركية. أطفأته، ذهبت فاستحممت وصليت ركعتين لله تعالى، وقررت أن أنام.

لا أعرف كيف نمت. لا أعرف إن كنت قد نمت أم لا. كانت الأحلام مختلطة، حلمت أنها توقظني وتحاول إرضائي، فأصحو فأجد أنها نائمة. أعود فأنام، وبعد نوم وحلم، ونوم وحلم، شعرت بأن لمسات خفيفة ورقيقة تسبح على جسدي. بدأت عند نقطة لا أستطيع تحديدها ووصلت عند وسطي. شعرت بالانتعاش. شعرت بالنشوة. كنت فرحا، وأنا أنال ما تمنيته قبل أن أنام. بعد الصبر يأتي كل شيء وحده. حمدت الله أنني لم أصرخ فيها أو أوذيها بكلمة، واللمسات الرقيقة تدور وتدور على جسدي. آه لقد ظلمتها، كان يجب ألا أتسرع. كان يجب ألا أغضب كل هذا الغضب. وددت لو اقترب منها وأقبلها. قلت في نفسي: لأصبر قليلا، فلا يجب أن أطالبها بما لا ترغب فيه، فربما تريد فقط أن تعبر عن اعتذارها. ربما لا تريد كل العملية. لقد شعرت فقط بأنها أهانتني وتريد أن نتسامح بالحد الأدنى. هي تعرف أنه لا يمكنني النوم في مثل هذا الحالة التي عانيت، وتريدني فقط أن أنام. لكن اللمسات الرقيقة لا تتوقف، إنها تدور وتدور، هنا وهناك. اللمسات الرقيقة جدا، جدا رقيقة. هل هذه لمسات أصابعها؟ لا، بل نعم. لا، إنها دغدغة. لا إنها نمنمة. لا إنها ليست هي ولا أناملها. إنها شيء آخر. مددت يدي وأنا نصف نائم. مددت يدي لاكتشف ما يحدث، ولا أعرف كيف ألقيت بالغطاء بعيدا وأزحت شيئا عن جسدي، وصرخت وقفزت وصرخت وأنا أقفز، وأنا أنفض جسدي، كل جسدي. خلعت ملابسي وأنا أنفضه. صرت عريانا تماما وإنا أنفضه، قفزت هي الأخرى من على السرير. أشعلت النور وأمسكت بي قائلة: اسم الله عليك. ما بك؟ هل جننت؟ قلت: لا أعرف. ربما كنت أحلم. كنت أحلم.

قفص

بعد كل الذي فعله بي الرجال، حبست نفسي في قفص. اخترت أسلاكه، وشبابيكه، وبابه، وقبل أن يغلقه الرجال عليّ، أغلقته بنفسي. قررت أن أغلقه أنا. أنا التي أحضرت القفل وقفلته. حلا لي القفص مع الأيام وصرت أحبه. أحب أن أجلس فيه وألعب فيه، وأنام فيه، أسدلت ستائره لئلا يراني أحد، ففي بيتي هذا أفعل ما أريد. اعتدت أن أعيش حياتي بين الكتب، فطبيبة مثلي تحتاج إلى أوقات طويلة لمراجعة أمراض زبائني، أما وقت الفراغ فقضيته في قراءات أخرى عن المرأة ووضعها، وكنت أدخن كثيرا، علبتان أو ثلاث كانت تكفيني. قررت أن أنسى الماضي والحاضر والمستقبل أيضا، فحاضري كما ترون، ومستقبلي سيكون حاضري، أما ماضيّ فما زال يسجنني كل ثانية ويمنعني أن أرى إلا من خلاله.

كان يلاحقني في نهاري وليلي. في عملي وفي بيتي، وكلما أسدلت الستائر كان يأتيني من ورائها ويدلع لسانه في وجهي. كرهتهم كلهم، فكلهم مثل بعضهم بعضاً. أشعر بأن هؤلاء الرجال يعيرونني بأنهم رجال، وأنا لست كذلك. هم يشعرون بأنهم يملكون شيئا لا نملكه. هم يشعرون بأنهم يتفوقون علينا.

تقلبت في فراشي تلك الليلة طويلا. كانت تأتيني الأفكار والهموم من كل جانب. أطفأت الأنوار لئلا أرى حائطا. أغلقت الباب لئلا أعرف أن لغرفتي مدخلا. أسدلت الستائر لئلا أرى أنوار الشوارع، لكن همومي ازدادت. كانت تخرج من داخلي ولا قدرة لي على منعها. غطيت راسي باللحاف ولم تخفت تشعبات أفكاري، فقمت وأشعلت الأنوار، وأشعلت سيجارة وجلست في الحمام. دخنت ثانية وقلت في نفسي ربما إذا استحممت أشعر بالراحة. خلعت ملابسي ووقفت تحت الماء. كان ينساب على جسدي وأنا ألاحقه بيدي. تابعته من أعلى إلى أسفل. ولا أعرف لماذا توقفت يداي حينها عند الصدر. تابعت الماء، فإذا بي أداعبه. داعبت حلماته وجسده. جئت النهدين من فوق ومسحت عليهما، فانساب الماء حوليهما ورأيته يتجمع ويصب ما بينهما. شعرت بلذة والماء يفعل ذلك، فجئتهما من اليمين ومن اليسار وجمعتهما معا. أصبحا متلاصقين، فصار الماء كما الشلال. كنت أسمع خريره، وهو يحرك ركود الماء في الحوض. ظللت هكذا بضع دقائق. شعرت بالنشوة، فجئتهما من أسفل ورذاذ الماء يتساقط على رأسي وينساب على أي جزء يجده، وكان يجد كل جسدي أمامه. تخيلته رجلا. كان هذا الرجل دافئا ويلمني في كل جزء مني، وينساب بيديه على كل شيء. رفعت رأسي وفتحت شفتي قليلا، واتجهت نحو فمه، وأغمضت عيني، فراح يقبل شفتي. يقبلهما معا مرة واحدة، ويلامس لسانه لساني، ويسحبه إلى الخارج، يسحبه بحنان. كأنه يحاول نجدة غريق قبل أن يموت. كان يجعلني أتنفس بوتيرة أخرى. نتنفس معاً. الشهيق يقابله الزفير، والزفير يقابله الشهيق. كان يحاول بعث الحياة فيّ بعد أن كدت أموت، وكلما اقتربت من الموت يبعث الحياة في ثانية. كنت مثل مريضة في غرفة الإنعاش وهو الذي ينعشني ويشفيني، كنت أشعر بالألم وهو الذي يزيله. كنت الطفلة وهو اليافع. كنت فرحة بذلك، وأنا أتنقل ما بين الحياة والموت. لقد عشت الحياة أكثر من مرة، وعشت الموت أكثر. أحببته. تمنيت أن أموت هكذا، صرت شبقة. أردت كل شيء، فالموت يقترب، وأراه لذيذاً. صحوت وعنقي قد اشرأبت أعضاؤه وتماسكت، والماء الدافئ يدغدغني. شعرت بالإعياء. تعبت من الوقوف. نظرت إلى الحوض، فإذا به قد انتصف بالماء، فانزلقت إلى أسفل وسكبت ما في علبة الصابون فيه. قرفصت في الحوض، واستندت برأسي على طرفه، وعدت لأمسح على جسدي. رأيت روحي تتطهر مع هذا الصابون الذي يجعل حركة اليدين أكثر انسيابا. تأوهت، وتقلبت يمينا ويسارا، وصرخت، وتلذذت، وأنهكت. وددت أن أستريح قليلاً. شعرت ببرودة الماء. نهضت وقد أصابني الإعياء، ورحت أغسل جسدي بسرعة من آثار الصابون. غسلته بسرعة، بسرعة، لكن .. نقاط دم

سالت هي الأخرى. صحت بأعلى صوتي: ماذا فعلت بنفسي؟ ماذا فعلت بنفسي؟ وبكيت. بكيت، وسالت دموعي. بكيت وأنا أنشف جسدي. نشفته، ودسست نفسي كما أنا في الفراش لأنام.

صحوت من نومي وأنا أصرخ: سأقطعها، سأقطعها. نهضت من الفراش. أشعلت النور، وكانت الساعة الخامسة صباحا. هدأت أنفاسي، وعادت دقات قلبي إلى الانتظام. قمت أغلى القهوة. شعرت بالهدوء قليلا. حملت القهوة وجلست في الصالة أرتشفها، ورحت أسترجع ما حدث: كنت في صحراء. كنت وحدي، ومشيت وحدي. شعرت بالجوع وبالعطش. بحثت عن طعام وشراب فلم أجد. لحظة فإذا بي أرى ماء من بعيد. ركضت نحوه، فكان سرابا. جلست هناك وكانت الرياح تهب على من كل جانب، والرمال تتحرك إلى كل جانب. جلست مستسلمة، فإذا برجل يظهر أمامي، كان عاريا، حسن والهيئة والصحة والعافية. نسيت جوعي ونسيت عطشي. تذغدغت أجزاء من جسدي. انتظرت قليلا حتى يقترب، لكنه بقي على بعد أمتار مني. لم أستطع المقاومة. نهضت، وحين التفت يمينا، وجدت رجلا آخر يقف هناك. كان أكثر حسنا وجمالا. كان كل شيء فيه مغريا، شارباه كانا مغريين، وشعر صدره كان مغريا، وساقاه وكل شيء. خلعت قميصي لأفعل مثلهما، وتحت القميص اشرأبت الخلايا، وتوترت. التفت هنا وهناك، فكانوا رجالا يلتفون حولي. كل منهم كان أكثر جمالا. إنهم كثر. وددت أن أغني، لكن صوتي سكن مكانه، وتأوهت، ورحت أخلع كل ما ألبسه، بل انساب كل شيء وحده. شعرت بنشوة الروح وهي تحلق وتداعب الجسد، لكن لم يقترب مني أي منهم. أبقوا على مسافة مني، أمعنت النظر في الأول، وحاورته بعيني لكي يأتي، ولم يأت. وفعلت مع الثاني والثالث، ..، والعاشر، ولكن أي منهم لم يأت. اقتربت من أحدهم، فتحركت حلقة الرجال من حولي، في الاتجاه نفسه. اتجهت نحو آخر، فأبقوا عليّ مركزاً لدائرتهم. هكذا إذن. توترت أعصابي واشتدت عضلاتي، ورحت أبحث عن شيء اضرب كل واحد منهم به. لم أجد إلا الرمل. عفرته في وجوههم، فإذا بهم يقهقهون ويتحركون من حولي. كنت كأضحية يغنون لها أغنية الموت وهم يرقصون. حملوا طبولا وغنوا. ظللت أعفر الرمل باتجاههم، فإذا بي أمسك بقضيب حديد، كان صلبا مخبئا تحت الرمل. أمسكت به، وهجمت على أحدهم لأضربه في مقتل. لم ألحق به. ركضت وراء الآخر، والآخر والآخر، وأنا لا أستطيع الإمساك بأحد منهم. فرحت أركض وأركض وأصيخ وأصرخ: سأقطعها، سأقطعها.

كتبت

قبل أن يخرج. قبل أن يقفل الباب، وددت لو يتوقف قليلاً، فأنا لم أقصد إحراجه، بل أردته هو. أردت أن أحلل غموضه، لكنه قال: أنت غامضة جداً. لا أستطيع فهم هذا الغموض. لم أجبه. ليعتقد كما يريد، فهكذا يعتقد، وأنا لن أبدل فيه شيئاً إلا بخياره هو.
أردت أن نتحدث معاً في غموضينا، وأن نفتح صفحة جديدة من الحياة. مر شهر، شهران، وأنا لا أراه. أخرج أتمشى في الشوارع التي أحبها. أخرج إلى الأزقة التي كان يمشي فيها، فأجد الريح تصفعني. تصفع وجهي، ويديّ، وكل ما بان من جسدي. أتطلع إلى البيوت لأفهم أكثر سبب هروبه من السجون، والجدران الأربعة. أناقش الريح في أمرها، حتى ورمت يداي من البرد، ولم يعد للدهون من أثر في حماية بشرتي.
أرى الأعشاب والورود، وقد نبتت بين صخرة هنا وهناك. أرى التربة الحمراء، وقد تغطت بالأخضر. أحس بشعري يداعبه الريح. يفلت رباطه، ويود أن يطير. أرى الناس في عقلي، وفي فكري، وفي وجنتي، وأنا أدغدغهم، ويدغدغونني. أحس بالفرح، أحس بالنشوة.
آه لو كان معي، ليرى كم تغيرت. آه لو كنت معه، لأرى كيف تغير. أسابقه ويسابقني، ونضحك، ونبتسم، وتلامس يده يدي، وتلامس يدي يده.
تقفز قطرات الماء من حولي. وقع قدمي على الأرض لا أسمعه، لكني أرى آثارهما. آه لو رأيت آثار قدميه، والماء يهرب منها، أو يداعبه ويداعبني.
أنا طبيبة أطفال، وهو مناضل. لو يعرف كم ما زلت طفلة.
أنا أرى الآن كم هو طفل في جسد شاب. سأراه. إني أراه. إنه أمامي، وخلفي، لكني أريد أن نسير معاً. لم أودعه بالقول، لكني ودعته، على أن نلتقي.

لماذا التقينا أعداءنا؟ هو يقول ذلك بعظمة لسانه وبلحمه. كان يود أن نغير فيهم ما يعتقدون، وكانوا يودون أن يسمعوا قبولنا بهم. مجرد الجلوس معهم هو قبول بهم، حتى لو قلنا عكس ذلك. التقيناهم في حيفا، ويافا، وعكا، وبئر السبع. رفضنا أن نلتقيهم في القدس. إنها لنا، وهل بئر السبع، وعكا، ويافا وحيفا لهم!
كان يجب أن نلتقي نحن الاثنين، لنتنحدث، ونتحاور. الحوار بيننا كان يجب أن يتم قبل ذلك. لماذا أضطر لمجالسة أم قتيل قتل وهو يحاصر بيروت؟ لماذا أرى دموعها؟ هل يعرفون أهالي شهدائنا؟ هل يرون الدمع في عيون أطفالنا؟ هل يروننا أصلاً؟
كانت رحلات مرة، ونحن نتابع الشوارع في أرض آبائنا. كانت كثيرة هي الأشجار مكانها، وكانت بعض الوجوه تشبهنا، وكان الكثيرون لا ينتمون إلى هذه الأرض.
لماذا التقيناهم؟ هل قادة المنظمة يشعرون بهذا الحمل الثقيل الذي كلفونا به؟ إن أي عمل آخر هو أكثر سهولة. أخشى أن أفقد نفسي، وأعود شيئا آخر.
أنا أنا، ونحن نحن. صوتنا بح، ونحن نمثل شعبنا، لكن هل سمعونا، أم سمعوا أنفسهم؟
لماذا التقيناهم!

ذهبت إلى متنزه البلدية، كانوا قد أعلنوا عن عمل تطوعي فيه. لم يعد هناك مكان يجمع الأطفال والكبار والصغار. نحن في أول الربيع، والصيف قادم. يجب أن يعيش الأطفال حياتهم. لا بد من إعادة تأهيل المتنزه. كان هناك. نظفنا الأحواض من الأوساخ. أزلنا الزائد من الورود، بمقصات خاصة.
حاولت تجاهله، لكني كنت أجد نفسي أنظر نحوه. حاول تجاهلي، لكنه كان يختلس النظر نحوي.
من بعيد، قال: أحبك. من بعيد، قلت: أصادقك. من بعيد، قال: الحب أحلى. من بعيد، قلت: الصداقة أجمل، الصداقة تدوم. قال: لا تكذبي. قلت: لا تكذب. قال: أنتبادل الأدوار؟ قلت: الأفضل أن يلعب كل منا دوره.
غاب بعيداً وراء النافورة. غبت بعيداً بجانب ألعاب الأطفال، ورأيت خياله أمامي. ينكش الأرض، ويزيل الحجارة، وكان خيالي أمامه. أنكش الأرض، وأزيل الحجارة، وغاب يومين، فثلاثة، فثلاثين، لكني وجدته في البيت، يجلس على المقعد نفسه، وناقشنا المقالات التي كتبت، والأفكار التي تجددت، والإبداع الذي سيأتي.

رأيته،
يقف على سفح الجبل، على طريق عين قينيا. كان وحيداً، قرب البيت المهجور. همست: الآن أنت وحدك. قال: بل أنا مع الناس. قلت: أنا مع الناس، الناس فروا من حولك.

- أنت لا ترين الناس، وهم حولي، اختصرت العالم بك أنت.
- ولكني أراك تماماً بوضوح.
- غبت طويلاً.
- أنا هنا، لم أغب.
- ماذا تفعل؟
- أداعب الشوك.
- وأين أراؤك السياسية؟
- لم يعد هناك سياسة.
- هل نسيت؟
- لا، بل تصدى لها غيرنا، وأبعدنا عنها.
- وأنت ما رأيك؟
- دعيني أقم بعملي.
- لكن ما تفعله سياسة.
- ماذا تقصدين؟
- تتنفس، وتأكل، وتشرب سياسة.
- ما الذي غيرك؟
- أنت.
- أنا!
- حين ابتعدت عنك، فهمت العالم أكثر.
- لكنك لم تبتعدي.
- قل لنفسك إنك لم تبتعد، ولنعرف أن ما يجمعنا ويفرقنا هو السياسي.

وقف على أعلى الجبل المقابل لسردا. كنت هناك دون أن يراني. قال في نفسه: لو كانت هذه الحفرة بحراً.

- وماذا ستفعل؟
- سأسبح من هنا إلى هناك.
- لماذا لا تقطعها سيراً، أو لتذهب بالسيارة؟
- لأن الجنود على الطريق.
- هل تتقن السباحة؟
- سأتعلم.
- ما عليك إلا أن تتصور المساحة التي أمامك بحراً وتسبح.
- البحر هناك على يسارنا، لا نستطيع الوصول إليه.
- وهناك بحر على يميننا، تفوح رائحته بالملوحة.
- ولا أصله.
- ولا تصله.
- اذن، ما العمل؟
- ارم نفسك، وستجد أن المساحة التي أمامك أصبحت وجه ماء.
- وسأسير على الماء؟
- مثلما فعل الرسول.
- لكنني لست رسولا.
- فقط اسبح، فالبحر أمامك.
- لا أرى بحراً.
- أنت ما زلت أعمى.
- أنا ما زلت طفلاً.
- هل تطلب مني علاجا.
- وأنت طفلة.
- فلنظل أطفالاً، لكن دقق نظراتك، وستجد البحر أمامك.

كتب مقالة في الجريدة. قال: سنغني للعشق، كما نغني للزرع. سنغني للشعب وانتصاراته.

كتبت مقالة في الجريدة. قلت: سنغني للزهر، وللعشب الأخضر. سنغني للأطفال. سنغني لكل طفلة تعيش حياتها دون خشية. سنغني لكل طفل يعيش حياته دون خشية.

عمره الآن ست سنوات. وعمري عشر. سأنتظر حتى يكبرني، وسينتظر، لا بد، حتى أصير في مثل عمره.

حين نمت، حلمت به.
تحادثنا، تعانقنا، تحاببنا
لكني كلما فتحت فمي، كلما لفظت كلمة سقط سن من أسناني
ظللت أسمعه، وأنا أحافظ على السن الأخيرة
كان يقول، ويقول، ويقول، وأنا لا أقوى على الحديث
تحدث عن الشرق، وعن الغرب
عن الأرض، وعن السماء
عن الحرب، وعن السلام
أغمضت عيني علني لا أراه
لكني ظللت أسمعه
كأنه يقرأ في جريدة
كأنه يتصفح كتابا
وجدت نفسي أقول: أحبك
ولم تسقط السن، ولم تسقط أسناني أبداً

حزنت حين لم أجد اسمه في قائمة الوفد المفاوض. وددت أن أسأله عن شعوره. حين سألته قال: لا يهم، انتهت مرحلة من مراحل عملنا. قال: ولم يأتوا على ذكر اسمك في الطاقم الفني؟

- لماذا يذكرون اسمي؟
- لأنك أول من كتبت عن ملاحقة الأطفال، وأمراض الأطفال، ومعاناة الأطفال، وتشوه الأطفال.
- وآخر من كتبت.
- حسبت أن اسمك هناك.
- حسبت أن اسمك هناك.
- لماذا اسبانيا بالذات؟
- لماذا مدريد بالذات؟
- مدريد أفضل من منطقة الأندلس.
- لماذا.
- لأنها انتهت بدويلات.
- وستنتهي كذلك، ربما.
- هل نتقابل هناك؟
- أين؟
- طريق وادي النار.
- ربما في النرويج.
- ربما في عين قينيا.
- ربما عند الخمارة.
- لماذا لا تكون اللقاءات هنا؟
- حتى نعرف الذي لا نعرفه.
- وماذا نعرف؟ وماذا لا نعرف!
- لا نعرف نتيجة اللقاءات.
- وماذا نعرف؟
- سنظل نلتقي.

- أتذكر؟
- أتذكرين؟
- قصة جبينة.
- أي منها؟
- حين بدلتها الجارية، وركبت مطرحها.
- حين سقطت الخرزة في الماء، وغاب صوتها.

***

- أتذكر؟
- أتذكرين؟
- قصة جبينة؟
- أي منها؟
- حين صارت جبينة راعية.
- ترعى تحت الدالية.
- "ترعى غنم، ترعى سخول".
- وما هي مناسبة الحديث عن جبينة؟
- أرادت أمها أن تزوجها لثري، فدفعت الثمن.
- هي دفعت الثمن.
- نحن كلنا ندفع الثمن.
- ضاعت الخرزة الزرقاء في الماء، واختفى الصوت، وظهرت الصور.
- مونت كارلو ما زالت تعمل.
- بالصوت والصورة أحلى.

- لو نكتب.
- لو نرسم.
- ماذا سنكتب؟
- قصتنا.
- المشوهة.
- لكن فيها بريقاً ما، فيها شيء ما.
- وماذا سارسم؟
- البيت المهجور في عين قينيا.
- حديقة متنزه رام الله.
- ممكن، وسردا.

ها هو بجلس بجانبي، لا أراه ولا يراني، عالم فيه شيء من الاسطورة. نصنع حكايتنا
ها هي تجلس بجانني، لا أراها ولا تراني، لا تراقب لغة جسدي
وحيدين كنا
وحيدين ظللنا
بدأنا من هناك، وظللنا هنا

الحكاية بدأت بالسياسة
وانتهت بأشياء أخرى
لكنها سياسة
ونحن غرباء

أقف قرب النافذة. السور عال جداً. يمر في الشارع سيراً على الأقدام. كان هــو وأصـــحابه. ربما ذاهبون إلى اجتماع حزبي، ربما إلى اجتماع سياسي.
لم يخبرني. لو لم أره. أأشعر بالفرح لأني رأيته؟ أأشعر بالغضب لأني لست معه؟
لو لم تكن هناك نافذة لما رأيته. لو كان الجدار أعلى قليلاً لما رأيته. لو لم يكن هناك شـــارع لما رأيته. لا أعرف إن كنت أحب أن أراه أم لا.

أود لو أحتضنه. أود لو يغسل شعري بالحناء. أود لو يقلم أظافري. أو لو يمسح على جسدي. لكني أمنعه، وهو يتمنع. سيأتي الصيف، ولا حاجة لإغلاق النافذة ولا الباب، لكنه لا يحب الصيف. سأنتظر شتاء آخر، ربما.

جاء يوم أن استشهد أمين القالوني. سقط وهو يهرب من الجنود في بهو المصعد قبل أن يجهز قال: سنذهب للعزاء. ذهبت رغم أني أحببت أن أبقى في البيت وحدي. ذهبت إليه يوم أن استشهدت ماريا سمعان. قتلتها رصاصة وهي على شرفة منزلها. قلت: سنذهب للعزاء. ذهبنا زرنا كل أهالي الشهداء والقبور، لكني كل مرة كنت أود أن يزورني وأزوره، لنعيش حياتنا، ونناقش وضعنا.

حلمت هذه الليلة، به ومعه وفيه. ألا يحق لي أن أحلم؟ الجميع يفعلون، وحين يصحون، يكون الحلم قد مر. نذكره أحياناً، وننساه معظم الأحيان. حلمت بالكوابيس طوال عمري، وبالرجـــال الذين طوقوني، ولم أجد غير قضيب الحديد ألاحقهم به، وبالنار تطوقني من كل جانب، ولـــم أجد الماء ولا التراب لأطفئها، وبجسدي يهوي إلى القبر، ولا أجد له قاعاً.

وحين عرفته، حلمت به، وسعدت بلقائه في الليل وفي النوم، ونمت في النهار لأحلم، وتمنيت أن أكون من الصالحين، من الأولياء، من الأنبياء، لأحقق ما أراه.

ما زلت سعيدة، وأحبه لأحلم به، وأحب النوم لأراه، ولو بعد عني سأظل أراه.

ها قد مر صيف وصيف وآخر دون أن أراه، ومر شتاء وشتاء وآخر وكان بجسده وروحه بين الضباب.
أخشى أن يكون قد عرف غيري، فلا أراه. أخشى أن يكون قد اعتزل السياسة، أو اعتزل اللقاء، أو اعتزل نفسه.

بت أحب الحياة من أجلي ومن أجله. بت أحب اللعب مع الأطفال. إننا كلنا أطفال. آه لو أكون طفلة من جديد، ويكون طفلا من جديد، ونلعب معاً، دون أن نثير الأهل والجيران، دون أن نثير أحداً، ونظل نضحك مع الفراشات، ونخضّر كلما جاء الربيع، وننساب مع المطر كلما لامس الأرض.

كيف تعرف إلى ساما؟ ربما أنا الذي عرفته إليها. لماذا هذا الانجذاب بينهما؟
أنا أعرفه أكثر، وهي تعرف أني أعرفه، وأصادقه، وأوده. هل أنا مجـــرد موضـــة تبـــدلت بغيري؟ هل أنا مجرد مرحلة انتهت وراحت، وجاءت مرحلة ساما؟
دعه يجرب ذلك، فهو سيكون لي وحدي، وسيعرف أنني أتغير مع الزمن، بينما هو يتعامل مع قالب جامد. اكتفى بما وصلت إليه. هو لم يبذل جهداً كافيا لأتغير. أنا لم أبـــذل جهـــداً كافيـــاً ليتغير، لكني كل يوم أجد نفسي غير الذي كنته.
أغار عليه من ساما. آه لو كان اسمي غير اسمي. ربما تغيرت أسرع. مـــا الـــذي يجمعنـــا، فننجذب إلى بلال.
سأراه معها أو دونها، لكني سأراه، وسنعيد رسم لوحاتنا بألوان شتى، بلون الحياة التي أحلم بها ربما بألوان غير ألوان جدران بيتي.
سأراه

جاء زياد، يلبس معطفاً طويلاً، ويخبئ يديه تحت المعطف على صدره. جلس. عرضت عليه أن نشرب القهوة أو الشاي. قال: بل نشرب من هذا، فهو جيد في الشتاء.

- ولماذا تخبئه تحت معطفك؟
- أتريد أن تتفلسف عليّ؟
- لا، لكن لماذا تخبئه تحت معطفك؟
- هل تود أن تخبرني بأنك أكثر جرأة مني، وتعرض النبيذ أمام الناس وأنت تحمله؟
- لا، لكن لماذا نخبئه؟
- في نابلس يخبئونه في أكياس خاصة حتى يستطيعون أن يصلوا إلى بيوتهم بأمان.
- يعني النبيذ يشبه المنشورات السرية!
- نعم، هي مشروبات سرية. تقرأها وحدك، وتنشرها بين معارفك واصدقائك بسرية.
- إلى متى سنظل هكذا؟
- إلى أن يفرجها ربك.
- متى سيفرجها؟
- حين يفرجها سنعرف.

شربنا، وراحت الأفكار وجاءت. قال: هذا ما نستطيعه فقط.

- ما هو الذي نستطيعه؟
- أن نشرب لننسى بعض المآسي.
- هل نحن عاجزون؟
- إن كان هذا يفرحك فنحن كذلك.
- هل نقف عند الكلام والسلام.
- هذه أصبحت مهنتنا، من الصعب أن نغيرها.
- وكيف نكون فاعلين في المجتمع؟
- أصبح المجتمع هو الفاعل فينا.
- إلى متى؟
- إلى أن يفرجها ربك.
- وهل هو راض عنا؟
- أظن نعم.
- لماذا؟
- لأننا نعمل من أجل الناس.
- متى سيفرجها؟
- حين يفرجها سنعرف.

ساما

التقيتها لأول مرة في اجتماع الفعاليات الثقافية مع وزير الثقافة. أحببت شخصيته وجرأته. كنت قد ألتقيته في الأردن، وكنت أنا الذي يتحدث عن الوطن، وهو يسمعني، وهو يعرف كل الذي أعرفه وأقوله. تحدّث عن المرحلة القادمة، مرحلة البناء. كان الاجتماع كبيراً في قاعة مدرسة الفرندز للبنين. تحدث كثيرون لأجل التعريف بذاتهم وبقدراتهم الثقافية الأخرى. سألته: أية تجربة ستسلكون في مرحلة البناء القادمة، أهي اليابان مثلاً؟ رأيته يحتد، ويقول: تقصد أن نستسلم؟

- لا، بل أن نبدأ البناء من الاعتراف بالهزيمة.

اقتربت مني وقالت: أتعرف أن ما تقوله مهم، ولا أظن أن هناك خلافا بين ما تقوله وما يقوله الوزير.

***

التقيتها للمرة الثانية في اجتماع مع وزير الإعلام. قال: بعد أن فاز نتنياهو برئاسة الحكومة الإسرائيلية، يجب أن لا نألو جهداً في التفاوض معه، فرغم أيديولوجيته الجامدة، فإنه براغماتي، ويمكن تحقيق بعض الإنجازات معه.
سألته: كيف يكون أكثر تشدداً من سلفه، ويحمل أيديولوجية جامدة، ويكون براغماتياً؟
قال بحدة: لأن هناك فرقاً بين أن تحمل أيديولوجية متشددة عنصرية، وبين أن تكون براغماتياً. هو يجب أن يحقق شيئاً لشعبه، ونحن يجب أن نحقق شيئا لشعبنا، والقضية لن تنتهي عنده.

اقتربت مني، وقالت: سيمرمطنا الإسرائيليون، لكننا نعرف أهدافنا.

***

التقيت بها للمرة الثالثة في اجتماع القيادة الحزبية، قالت: هل نذهب لنشرب القهوة معاً. وشربنا القهوة، وراحت تسرد لي قصة تشردها، ورحت أسرد لها قصة عذابنا. قالت: أي الأغاني تسمعها هذه الأيام؟ قلت: كلما انحرفت هنا أو هناك، أعود فأسمع فيروز. لكني اسمع اليوم أغنية محمد عبد الوهاب "من غير ليه". قالت: وأنا أحب فيروز. أما أغنية "من غير ليه" فإنها تشبه بشكل ما قصيدة "الطلاسم" ل "إيليا أبو ماضي".

- إني أعرفك.
- إني أعرفك، بل أحس أني أعرفك.
- أتقابلنا في الأردن؟
- لا، لم أرك هناك.
- أتقابلنا في لبنان؟
- لم أكن هناك يوماً.
- أرأيتك في تونس؟
- لا، تمنيت أن أزورها.
- ربما في اليمن الجنوبي.
- ولا الشمالي.
- إذن أين تقابلنا؟
- ربما هنا، في رام الله، في القدس، في بيت لحم، في نابلس.
- ربما.

- أين تعيشين الآن؟
- في مخيم دير عمّار.
- مش معقول. هذا المخيم أعرفه، وأعرف معظم سكانه.
- كيف؟
- عشت فيه فترة من الزمن.
- اذن تعرف عمر السبيعي.
- قصدك الشهيد عمر السبيعي؟
- هذا زوجي.
- بل كان زوجك، رحمة الله عليه.
- ألم تسمع أن الشهيد لا يموت؟
- نعم، لكنه مات.
- على الأقل الناس ما زالوا ينادونني بأني زوجة الشهيد، ولم يقولوا أرملة الشهيد.
- أين عرفته؟
- في الأردن، كنا في الحزب نفسه، تعارفنا، وتزوجنا.
- أأنجبتما؟
- لا، كان "زواج ثوار"، "زواج على الماشي".
- أين قتل؟
- استشهد في لبنان.
- بأي رصاص؟
- إسرائيلي، بل بقنابل إسرائيلية ألقيت من الطائرات.
- لماذا تسكنين دير عمار؟
- كانت أمنيته أن نعيش هناك حتى نعود؟
- أحلم بالمخيم؟
- نعم، حلم بأقاربه، ورفاق طفولته.
- كيف تجدين المخيم؟
- بصراحة لم أجده بعد، فالناس ما زالوا يستقبلونني، لا وقت فراغ لدي وأنا هناك. لكني أحس بالغربة.
- لماذا؟
- لأنني أعيش مع عائلة لا تعرفني جيداً.
- وماذا تفعلين؟
- إني أعيش حياتي.
- كيف؟
- كما ترى، أداوم في النهار في وزارة الشباب، وأعود قبل المساء بقليل، أتسامر مع أهالي المخيم.
- وكيف تجدينهم؟
- أحب المخيم، وأحس بالغربة.
- وماذا تفعلين؟
- ما أزال أتنقل من بيت إلى بيت.
- وماذا تريدين؟

- كان يحدثني عمر عن الطبيعة هناك.
- إنها هناك.
- أتزورني، وتعرفني عليها؟
- أزورك.
- لكن الفصل شتاء.
- أحب الشتاء، وأحب الطبيعة في الشتاء.

جلسنا على سطح الجبل، كان الهواء يحرك الأشجار التي تغطي قمتـــه. وكـــان رذاذ خفيـــف يتساقط.
قالت: أتعرف تاريخ ميلادي؟
- وكيف لي أن أعرفه؟
- بل يجب أن تعرف.
- ربما في أيلول.
- لماذا أيلول؟
- لأنك عدت إلى الوطن في أيلول.
- لا، إنه في مثل هذا اليوم. إنه في 12/25.
- 12/25! هذا تاريخ عالمي.
- تصور، كثيرون يحتفلون بهذا التاريخ، وأنا سعيدة بذلك.
- كل عام وأنت بخير. أأحضنك؟
- تستطيع ذلك.

حضنتها قليلاً، ورأيت دموعاً تسيل من عينيها. حضنتها مرة أخرى، لأواسيها وأبارك لهـــا، بعام جديد.
قالت: ليس هذا هو المهم.
- وما المهم اذن؟
- أني ولدت على رأس جبل.
- كيف يكون ذلك؟
- شعرت أمي بأن الولادة تأخرت قليلا، فصعدت إلى شيخ يعيش على مثل هذا الجبـــل. جاءت إليه ليقرأ بعض الآيات، لتسهل ولادتها، فإذا بالمخاض يأتيها وهي عنده.
- وماذا فعلت؟
- نادى زوجته، ساعدتها على الولادة، وكان هو يمسك بباقي جسدها.
- يعني ولدت أنت بفعل الشيخ؟
- بل ولدت على الجبل.
- وماذا تشعرين حيال الجبل؟
- لا أعرف، فأنا بدأت حياتي من فوق.
- هذا جميل.
- ربما الأجمل أن تبدأ حياتك من تحت.
- أنت قائدة نسوية فلسطينية، وعربية.
- لا، لو سمحت. أنا مناضلة سياسية، وأمر النساء هو واحد من أمور كثيرة.
- كيف؟
- لم تكن النساء موضوعي لأناضل من أجله، بل كانت البرامج السياسية هـــي قضـــيتي، وأمر النساء فرع منها.
- هل تتقبلنك النساء فيما تقولين؟
- لا يهمني، فكثير منهن، لا يعرفن الرجال حقاً.
- وهل تعرفينهم أنت؟

- أنا ناضلت وإياهم في مواقع ومناصب كثيرة. طبعاً هناك قضايا تخص المرأة. ليست هناك خلافات كثيرة في نظرة المناضلين والمناضلات في قضايا المرأة.
- إذن أين هو الخلاف؟
- الخلاف تجده في المجتمع.
- والقيادات السياسية لم تعمل بما هو كاف في المجتمع.
- هذا تقصير من ناحية ما، ولكنه مفهوم من ناحية أخرى.
- كيف؟
- تقصير، لأن المنظمات والأحزاب لم تضع قضايا تحرر الناس اجتماعيا ضمن التحرر السياسي.
- وكيف يكون مفهوماً؟
- مفهوم، لأن المنظمات والأحزاب كانت معنية بتكبير حجمها بين الجماهير بأي ثمن، حتى لو كان بالتناغم مع القضايا الاجتماعية.
- أتخيل يا ساما، لو سمعتنا سما وأنت تتحدثين عن هذا الأمر لجن جنونها.
- هي حرة.
- أي مخطئة؟
- لا، لكن الفرق بيني وبينها، أنني عشت طوال حياتي بين المجتمعات العربية، أما هي فتعلمت في أوروبا، واكتسبت ما يقولونه.
- دعينا نعترف بأن هناك قضايا نسوية.
- طبعاً، لكن حلها يكون بالعمل الاجتماعي من ناحية، وسن القوانين من ناحية أخرى.
- وهل السلطة ستقوم بالجانب القانوني؟
- من واجبنا أن نحاسبها بناء على وثيقة الاستقلال.
- وكيف نقوم بالعمل الاجتماعي؟
- إذا كانت هناك خطة سياسية تنموية، فإن المجتمع سيتطور وفقه.
- وما دور الأحزاب في ذلك؟
- إذا لم يكن هناك خطة تنموية عامة، فإن الأحزاب ستتنافس اليوم على الجمهور كيفما كان.
- وما رأيك بما كانوا يطرحونه سابقاً؟
- كان من أجل كسب الجمهور بتعدداته، لكن الثوار كانت لهم حياة فيها الكثير من الحرية والاختيار.
- والناس؟
- هم الذين تراهم في المخيم.

في الطريق نزولا، رأيتها تمسح دموعها. سألتها: لماذا تبكين؟
- تصور أن أمي بعد أن ولدتني بقليل، نزلت مثل هذه المسافة. الدم يسيل منها، وهي تود أن تصل إلى البيت سالمة.
- وأنت؟
- أخبروني أني كدت أختنق، وهم يلفونني ببطانية.
- المهم أنك تعيشين حتى الآن.
- لكنهم أخبروني أنهم نزلوا بي كل هذه المسافة وأنا أبكي.
- وهل تحاكي أمرك قبل خمسين سنة؟

- ربما.
- والآن؟
- سأعيش حياتي، فلا أعرف متى ستنتهي.

كنت أحضر لقاءً مع مخرجة أجنبية للأفلام السينمائية، التقينا في مركز خليل السكاكيني.
في الساحة، جاءتني مستاءة، قالت: بعد هذا العمر الذي مر بي، وبعد كل العذابات التي مررت بها، يريدونني أن أعمل في الوزارة كما الباقي.
- وأنت ماذا رأيك؟
أمسكت بيدي، وقالت: تعال لنشرب القهوة في مكان قصي. كانت صامتة طوال الطريق. جلسنا في زاوية من المقهى، وكان شبه فارغ.
- تحدثي، ماذا تريدين أن تقولي؟
أمسكت بمنديل، وراحت تمسح دموعاً تنزف من عينيها.
ربتّ على ظهرها. اقتربت مني، ومالت برأسها على كتفي.
- هل يمكن أن تقبل بي صديقة؟
- طبعاً.
- تسمعني واسمعك؟
- نعم.
- لا أريد سوى صداقتك.
- مفهوم.
- لن أطلب منك سوى الصداقة.
- وأنا أقبل.
مسحت دموعها، وابتسمت، وقالت: أصبح لي صديق.
- أليس لك أصدقاء؟
- بلى، ولكني أحب مصادقتك.
- وأنا لها.
- يفكر هؤلاء المسؤولون أن باستطاعتي العمل بعد هذا العمر.
- وما هو البديل؟
- أنا تعبت من الترحال. تعبت من الغربة. تعبت من التشرد. أريد أن أستقر.
- وها أنت مستقرة. لك وظيفة تعتاشين منها، وتقابلين الناس، وتشاركين في الفعاليات الثقافية والسياسية.
- أريد أن أرتاح.
- وماذا تفعلين في الراحة؟
- أريد أن أطوف على البلاد مدينة مدينة، وقرية قرية، ومخيماً مخيماً؟
- وبعد ذلك؟
- سأكتب قصة حياتي.
- ألا تكتبينها وأنت تعملين؟
- العمل يستهلك مني أربعين ساعة أسبوعياً. أريد أن أرتاح. هؤلاء لا يفهمونني.
- لكنك قبلت بالعمل في الوزارة، أنت أخذت مكان غيرك.
- هم الذين وضعوني في هذه الزاوية، تصور أن يكافأ المناضلون فقط بوظيفة، أنتظر آخر الشهر لأعيش.
- ماذا توقعت غير ذلك؟
- لو كنت وكيلة وزارة مثلاً لاختلف الوضع.
- وكيف أستطيع مساعدتك بصفتي صديقك؟

- سأطالبهم بالتقاعد المبكر.
- وماذا ستفعلين؟
- سنتقابل، وسنناقش معاً ماذا يمكن أن أفعل.

صمتت قليلاً، فإذا بالدموع تنساب مرة أخرى. وقالت: يبدو أنك لا تفهمني يا صديقي.
- بل أفهمك إلى حد ما. سأعود إلى البيت وأفكر جيداً فيما تقولينه.
- اسمع، سأرحل من المخيم؟
- لكنك وعدت الشهيد عمر السبيعي بأن تعيشي هناك؟
- نعم. أن أعيش أنا وهو هناك، وليس وحدي.
- ولماذا ستعيشين في رام الله.
- حتى يكون الجو مهيئا لي لأفكر، وأعيش حياتي.
- إذا كان هذا خيارك، فأنا أحترمه.
- وسأراك دائماً.
- طبعاً.

اتصلت بي هاتفياً. أصرت أن نلتقي بأسرع وقت. لمحّت لى أنها أمام مفترق طرق.
كانت الساعة التاسعة مساءً. وكانت هي في المخيم. حاولت أن أؤجل ذلك إلى الغـــد، لكنهـــا أصرّت أن آتي. قالت: سأخوض الانتخابات التشريعية.

- الانتخابات التشريعية! تساءلت.
- نعم، ومن هو أحق مني بأن يخوضها.
- المسألة لا تعتمد على الكفاءة. الذي يخوض الانتخابات بحاجة إلى جمهور.
- كل الناس تعرفني.
- من هم الذين يعرفونك؟
- كل السياسيين، وكل المثقفين، وأهالي المخيم، وسأدور على كل مناطق رام الله.
- يعرفونك، لكنك ستتنافسين مع غيرك وأنت تعرفينهم.
- سأخوض التنافس سياسياً واجتماعياً. كثيرون سينتخبونني.
- أنا سأنتخبك. لكن التنافس كما ترين سيكون شديداً بين بلدوزرات السياسة وبلـــدوزرات المال، وسيشارك في الانتخابات بعض المثقفين أمثالك.
- أنا مع الثقافة التقدمية، وأنا مع المرأة، وأنا مع البسطاء.
- وهل كل هؤلاء معك؟
- يجب أن يكونوا معي.
- لو تفكرين جيداً.
- سأكون ضمن قائمة مستقلة تشمل كل الذين هم أمثالي.
- ما هو المطلوب مني؟
- أن تدعمني.
- لو قررت أن تخوضي الانتخابات فسأكون معك.

طفت معها بعض المواقع وضمن ما يسمح الوقت لي. كان الناس يستمعون إليها وهي تتحدث ببراعة. يبهرون بجمالها: ببشرتها البيضاء، وعيونها الملونة، وطولهـــا الفـــارع، وشـــعرها الكستنائي.

بعد أسبوع من نشاطها، اتصلت بي، وقالت: سأنسحب.

- لماذا؟
- لأن أهل زوجي لا يريدون ذلك.
- ماذا يريدون؟ وهل يفرضون عليك رأياً؟
- سأخسر المخيم.
- هل خسرته فعلاً؟
- سأنسحب.
- إذا كان هذا خيارك، فليكن.
- وسأرحل من المخيم حالاً. سأعيش وحدتي. سأعيش مع نفسي، وأكتب قصتي.

بعد أسبوع، اتصلت بي، تريدني فوراً. التقيت بها في زرياب، شربنا عصير برتقال.
- الأمر هذه المرة جدي جداً.
- ما هو؟
- سأتزوج.
- على بركة الله.
- لكنك ستساعدني.
- كيف؟
- سأتزوج ابن عم سما.
- أين هو؟
- يعيش وحده في رام الله.
- أظنني التقيت به عند ابنة عمه.
- ستساعدني.
- كيف؟
- ستذهب إليه أنت وتحدّثه في الأمر.
- ماذا يعني ذلك؟ سأطلب يده؟
- ستحدّثه في الأمر.
- ما هو الأمر الذي سأحدّثه فيه؟
- أمر الزواج.
- هل طلبك؟
- لا.
- اذن كيف ستتزوجينه؟
- هو يريد الزواج، يريد أن يستقر، وأنا أريد الزواج والاستقرار.
- لكنه لم يطلب الزواج منك.
- أنا سأحدّثه، وسأخبره، بأني مثله أريد الزواج والاستقرار، وأنت ستحادثه كرجل.
- لكن الناس، خاصة أقارب زوجك الشهيد لا يريدون أن تتزوجي.
- لكني أريد. أليس لي الحق في أن أتزوج؟ ألا يكفي أني لم أرزق بأطفال؟
- بلى يكفي، من حقك الزواج.

بعد أسبوع، ارسلت لي رسالة بالجهاز النقال قالت فيها: سأنسى الزواج، لأنه رجع إلى الأردن، ولا يريد الزواج الآن.

- أنا في البيت، تعال اشرب يانسون.
- لماذا يانسون؟
- لأنه مهدئ.

كنت مترددا في الذهاب، لكني أحب شرب الأعشاب، أعرف أنه أكثر صحة وأكثر فائدة من القهوة. لكن ما أصعب أن تعرف بأنك مقدم على مغامرة لا تعرف نتائجها، لا تعرف أين تقودك. أحب المغامرة، وأكره النتائج، بل أخشاها. فأنا لي أسرة. أحب أسرتي، وأحب استقرارها، وأكره روتينها. الزواج ينقلك إلى حياة الروتين، وأنا أحب التجديد.

أعرف أنها وحدها الآن، وأعرف أن الوحدة تبتدع أشياء حتى لو لم تقلها. أعرف أن فنجان القهوة أو الشراب له طعم آخر، لذلك أنسى طعمه، وأعود أفكر في الإنسان الذي يقابلني: كيف يشرب القهوة؟ ماذا يفكر الآن؟ ماذا يريد أن يبوح به؟ ما هي الأشياء التي لا يستيطع البوح بها؟ وأشرب دون الإحساس بطعمه الذي أعهده.
كانت هناك في مدينة البيرة، في شارع الهاشمية، حيث كثرت المباني، وكثرت الطوابق، وهي في الطابق الرابع، والسكان لا يعرفون بعضهم، فكل جاء من منطقة، هذا من جنين، وهذا من الخليل، وهذا عائد، وهذا عريس جديد.
وجدتها تقف وراء الباب قبل أن أقرع الجرس، كان الباب شبه مفتوح فقط لي.
- هل غليت اليانسون؟
- سنغليه معاً.

في المطبخ، ساعدتها في تحضير الصينية، وكأسين رسم عليهما قطان. وهي تنظر إليّ من وقت إلى آخر.
قالت: لماذا تلبس بدلة؟
- كنت في مؤتمر حول أثر أوسلو في خلق ثقافة فلسطينية مستقلة.
- إلى ماذا توصل المتحدثون؟
- إلى أن الثقافة الفلسطينية أصبحت أكثر بعداً عن الثقافة العربية.
- كيف يكون ذلك، ونحن اليوم أكثر اتصالاً مع العالم العربي مقارنة مع ما قبل أوسلو؟
- لأنه تم التركيز في المرحلة الحالية على رموز الثقافة الفلسطينية الذين يتسابقون للتعريف بأنفسهم هنا، ونسينا مع الأيام حنا مينا وعبد الرحمن منيف، ورشيد الضعيف، وصنع الله ابراهيم، والطاهر وطار، والطيب صالح.
- أليس ذلك أمراً طبيعياً؟
- كل شيء يمكن أن يكون طبيعياً مثل اليانسون.
ضحكنا معاً، وقالت: ما رأيك في أن يكون المرء طبيعياً أفضل من التصنع؟
- أنا أيضاً أحب أن تكون الأمور طبيعية خاصة في الشتاء.
- ولكن بشرط أن لا تكون الطبيعية مصطنعة.
- ما سمعته اليوم في المؤتمر يدل على أن الأمور مصطنعة.
التفتت إلي برهة، وقالت: لأول مرة أجد أن اللباس الرسمي ملائم لك، أجد أن اللون الأسود يلائم وجهك الأسمر. أجد أنك بهذا الطول. أجد أن ابتسامتك طبيعية، أجدك طبيعياً لولا هذا المعطف الذي تلبسه.
- خلص، ذبحتني وأنت تتغزلين بي.

- أولاً يجب أن تكون طبيعياً.
- كيف يكون ذلك؟
- في هذا البيت المسجّد لا تلبس الحذاء. اخلعه.
- أخلعه.
- في هذا البيت الذي يطل على الطبيعة من جهة الشمال، لا يلزم أن تلبس المعطف. اخلعه.
- أخلعه.
- في هذا البيت المدفأ، لا يلزم أن تلبس ربطة عنق. اخلعها.
- أخلعها.
- قبل أن تشرب اليانسون، عليك أن تكون طبيعياً.
- أنا كذلك.
- تعال أطوف بك على أركان البيت لتعرفه.

طفت معها، من غرفة إلى غرفة. بدأت بغرفة النوم، وبالحمام، وبغرفة المكتب، وكانت كلما أوشكنا على وصول الباب، تضع يدها على خصري، كما المضيف الذي يحترم ضيفه.

- أليست غرفة النوم جميلة؟
- جداً.
- تعجبني فيها ألوانها الدافئة.
- خاصة وأن الفصل شتاء.
- يعجبني فيها حجمها، فهي فقط للنوم.

قلت بارتباك: طبعاً.

- أنشرب اليانسون؟
- نعم.

جلست على أريكة مزدوجة، وتركت المكان الفارع من جهتي اليسرى، ومددت يدي أعانق مخدتها.

وقفت مقابلي، وقالت: أتسمح لي كصديقة بأن أجلس بجانبك؟

- طبعاً، تعالي.

وضعت رأسها على كتفي، ووضعت طرف يدي على كتفها.

ازاحت نفسها فجأة.

- لماذا تبتعدين؟
- أراك مرتبكاً. خض جسمك مرة واحدة.

هذا ما حدث بالفعل، لكني حاولت أن أداري ارتباكي.

- لا تعالي بجانبي.

وضعت يدي على كتفها، وسحبتها نحوي.

- ليس إلى هذا الدرجة. أريد فقط أن أحس بأني أجلس بجانب صديقي.
- أنت تجلسين بجانبه.

صحوت على رياح قوية تهز النافذة. كانت تراقبنا، تحاول أن تقتحم علينا خلوتنا المغمسة باليانسون البارد. كانت حركة الستائر تدل على أن أحدهم يقف هناك، بل كل العالم يرانا.

نهضت وتطلعت، فإذا بمعكسر "بيت إيل" ومستوطنته يقفان مقابلنا. تفسد علينا هذه الصـــداقة، تفسد علينا الحديث الصامت، والالتصاق الحميم، والأنفاس الحارة.
أكملت شرب اليانسون، وودعتها على أن نلتقي.

- لا أحب اليانسون.
- ماذا تريد اذن؟
- أريد بابونج.
- لماذا؟
- أسناني تصطك من البرد، ولا يوجد أطباء أسنان في هذا الوقت.
- موجود.
- تعال أجلس هنا، ستدفأ أسنانك، وفمك، وكل جسدك.
- ماذا ستفعلين؟
- سأدفئ صديقي.
- أنا مرتبك.
- أنت مرتبك.
- ماذا أفعل؟
- فقط استلق على الكنبة.
- ألا نشرب البابونج؟
- ستشربه في الوقت المناسب.

بدأ الثلج يغطي الأرض، كانت البرية تكتسي لونها الأبيض رويداً رويداً. الجو صاف تمامـــاً. قلّت الرياح، وقلتّ أصوات الرعود، وقلّت ومضات البرق.
كان سقوطه ناعماً، هادئا، مقنعاً.
وقفت أمام النافذة، أراقب السقوط. كانت مساحة النافذة تصغر قليلاً قليلاً.
شعرت بيد دافئة تحط على كتفي.
لم ألتفت. ظللت أراقب نقاء الطقس، وبياضه الناصح، وفراشاته المفرودة. وظلت هي كذلك.
أضاء اللون الأبيض الصالون دون طاقة نصرفها. ولبست الأغصان ثوباً أبيض.
همست في اذني: هل أنت سعيد؟
التفت نحوها، وأجبتها دون أن أتكلم بنعم
- كن طبيعياً.

صوت بكاء على الجوال. صوت حزين وشهقات.
- ما بك؟
- أشعر بالوحشة.
- من ماذا؟
- الثلج يحاصرني من كل ناحية.
- بل هو يناديك.
- أنا لا أستطيع الخروج.
- سآتي حالاً.

وجدتها مكومة أمام المدفأة، تغطي نفسها بعباءة نسائية، وتلبس ما ثقل من الثياب. حضـــنتها طويلاً، وهي تبكي.
- لماذا الثلج؟
- حتى يعمل على تنقية نفوسنا.
- لكني لا أخرج.
- لماذا؟
- لأني لا أستطيع، أحب أن أرى الثلج من بعيد.
- أرأيت الثلج في بلادنا قبل هذه المرة؟
- وأنا طفلة.
- ما رأيك في أن نعود أطفالاً؟
- كيف؟
- نخرج.
- في هذا الجو البارد؟
- في هذا الجو الجميل.
- بشرتي البيضاء لا تحتمل ما تحتمله بشرتك.
- بشرتك البيضاء تعكس الضوء فلا تمتصه.
- بشرتك السمراء جميلة.
- اللون الأبيض جميل.
نزعت ثيابها وبدلتها، كما تفعل أية امرأة في بيتها، كما تفعل أمام زوجها. كانت طبيعية.
لبست حذاء طويلاً. غطت رقبتها، ورأسها، وخرجنا.
- لا تبتعد عني، ربما أتزحلق.
- لا تبتعدي عني، ربما أتزحلق.
لكني ابتعدت قليلاً، أمسكت بقبضة ثلج وألقيتها في وجهها.
صاحت: ماذا تفعل يا مجنون؟ أتريد أن تقتلني؟
- بل أن تلطّي وجهك بثلج بلادك.
- عرفت الثلج في تونس، لكنه ليس مثل هذا.
- عرفت الثلج في أمريكا، لكن ثلجنا أجمل.
- كيف؟
- أجمل.
- الثلج جميل لأننا نسير معاً.

- نعم، والثلج جميل، لأنني أكاد أطير.
- أتطير وحدك؟
- بل نطير معاً.
- لا تحلق بعيداً.
- لنحلق معاً.
- أأستطيع أن أرميك بالثلج؟
- هذا لا يحتاج إلى اذن. افعلي ما ترينه مناسباً.

- أود لو نسافر معاً.
- وأود ذلك، لكن إلى أين؟
- لو نشارك في مؤتمر واحد.
- أي مؤتمر؟
- المهم أن نقرر أن نسافر معاً، ومن ثم نبحث عن مؤتمر نلتقي فيه في الفندق نفسه.
- ما هو المطلوب مني؟
- أن نبحث عن مؤتمر يلائم اهتماماتنا.
- مثل ماذا؟
- مؤتمر عن البيئة مثلاً.
- عندها سأتحدث عن الطبيعة، خاصة في فصل الشتاء، وأثره في العلاقات الاجتماعيـــة. لكن عن أي شيء ستتحدثين؟
- سأتحدث عن البيئة السياسية التي تصوغ حياة الفرد والجماعات.
- مثل ماذا؟
- ألا ترى فرقاً بين لباس الأفراد والجماعات في أواسط الستينيات واليوم.
- نعم، أراه.
- أنت كنت شاباً في مقتبل العمر.
- وأنت كنت ناضجة تمام النضوج.
- وأحزاب الأمس غيرها اليوم.
- وثياب الأمس غيرها اليوم.
- هذا جزء من المظهر.
- وما هو المظهر الآخر؟
- علاقات الناس.
- مثل ماذا؟
- كانت رام الله كما أعرف فيها "تعوم"، يلتقي الشـــباب فيـــه ويرقصـــون، ويشـــربون، ويأكلون.
- أما اليوم؟
- فيه زرياب، والسكاكيني، وقصر الثقافة، والقطان.
- وماذا في ذلك؟
- كلها تقدم برامج ثقافية، وليس في رام الله برامج ترفيهية للفرد والجماعات.
- وماذا في ذلك؟
- قل لي: أين هي الأماكن التي يقضي فيها شبابنا وقتهم؟
- إما في الشوارع، وإما في المقاهي.
- ألا ترى موضة المقاهي في الطوابق العليا.
- وماذا في ذلك؟
- إنها تقطع الفرد والجماعات عن الناس وعن الشارع.
- وماذا في ذلك؟
- إنها تمنع الإنسان عن التواصل مع الناس.
- وفي ذلك استجابة للأحزاب السياسية.

- تحولت مراكزهم من البيوت السرية، والمقرات المخفية إلى الطوابق العليا من العمارات.
- كانوا بين الناس، وعزلوا أنفسهم عن الناس.
- لنعد إلى المؤتمر.
- أين سيعقد؟
- سنعقده في عمّان.
- ومن أين لنا بالتمويل؟
- المنظمات غير الحكومية كثرت، وسنجد من يموّل.
- ماذا لو عقدناه هنا؟
- كرهت اللقاءات في هذه القاعات المتكررة: سيتي إن، بست إيسترن، جراند بارك، وغيرها.
- لماذا كرهتها؟
- لأن كل واحد يتكلم مع نفسه، ولا يسمع الآخرين.
- كيف؟
- كل يهتم بشؤونه، ويعتقد أن الآخرين سيستمعون فقط لما يقوله، يعتقد أن ما يقوله مهم.
- وهل الأمر سيختلف إذا ما عقد المؤتمر في عمّان؟
- قليلاً.
- كيف؟
- لأن الأهل في عمّان، وفي الخارج يتشوقون لسماع وضعنا في الداخل. لقد غابوا عنه منذ فترة، ولم يعودوا يسمعون هناك سوى أنفسهم ، وسيجدون جديداً فيما نقوله ونحن هنا.
- وماذا لو لم نستطع تمويل اللقاء؟
- نسافر اثنانا، ونعقد لقاءات مع الجمهور من خلال المؤسسات هناك.
- ومن الذي سيدفع ثمن الإقامة في الفندق؟
- سنتدبر الأمر.

كانت مرتبكة، تعابير وجهها تغيرّت وتبدلت.
- قتلوا عشرة جنود إسرائيلين على حاجز المعلوفية.
- بل هو حاجز الخمّارة.
- هذا من الأسماء الجديدة التي أتت بها السلطة.
- الخمّارة أفضل، بل هذا الاسم هو الذي أعرفه.
- ماذا يربكك؟
- أخشى أن يدفعوا بنا وراء الجسر.
- هل هذا الأمر حقيقي؟
- صرح به أحد المسؤولين الإسرائيليين.
- كنت تقولين إنك تعيشين في سجن.
- لكني أود الخروج والدخول بقرار مني أنا.
- وهم أيضاً يقررون.
- نعم، ولكن أن يكون قرار العودة إلى الوطن شخصياً، يجعل مني إنسانة أقــرب إلـــى الطبيعية.
- عدت إلى الحديث عن الطبيعة.
- لأني أحبها، ولأنك صديقي.

وعانقتني، وبكت، وبكيت.

كتبت

كيف أبدأ سيرتي الذاتية؟
لا أعرف
أتكون البداية من النهاية؟
أتكون من حيث بدأت؟
من أين بدأت؟
لا أعرف
أعرف بدايتي في الوطن ثانية
أعرف بلال، أعرف صديقي. حين أيقنت أنه يمكن أن يكون لي صديق
كانت علاقتي بالرفاق كرفاق، ولم يكونوا أصدقاء
نسيت أن يكون لي أصدقاء
عرفتهم بأسمائهم الأخرى
بأسمائهم الحزبية
حين ألتقيهم في رام الله بقيت أناديهم بها
أشعر بأن هذه الأسماء تضع حاجزا بيني وبينهم
لكن بلال أعرفه باسمه
أحب الأسماء كما هي
وهو يعرفني باسم ساما، لكن اسمي الحقيقي غير ذلك
سأبوح له باسمي حين أجد نفسي تماماً
لم أجدها بعد

حين وصلت المخيم، خيل إليّ أن الناس سيحتضنونني تماماً
فعلوا ذلك عند اللقاء الأول
في الشهر الأول، وفي السنة الأولى
وحين قررت أن أرشح نفسي للهيئة الإدارية في النادي
انقسم الناس بين مؤيد لي ومعارض
تحولت إلى جزء من المعادلة الداخلية بدل أن أكون مراقبة وموجهة من الخارج
أرادوا أن أظل زوجة الشهيد
أرادوا أن أظل ببريقي من بعيد
وحين رأوني، تغيّروا
وحين رأيتهم تغيرت أنا الآخرى
سألت نفسي: أهذا هو الوطن الذي حلمت به؟
لكني ما زلت أحلم بالوطن
أود لو أسافر مرة أخرى لأرى الوطن من بعيد
وددت لو أطوف البلاد طولاً وعرضاً
وجدت ذلك مستحيلاً
فأنا هنا لست سائحة، وفي الوطن كل يوم شيء جديد
مؤتمرات، مسيرات، احتجاجات، مطالبات، واغتيالات
بت أعيش قصتي أنا
أعتقدت أن هذا زمن ربع الساعة الأخير كما يقول أبو عمار
لكن هذا الربع طويل
والحياة تمضي، وأنا في خريف العمر
أود لو أعيش
أحب أن أعيش
ولا أفعل

لم أعرف المرآة في شبابي
كنت أمر أمامها كأي شيء في البيت
لم أود رؤية نفسي، فهذا شيء ثانوي
عشت في الشارع، وأحببت ذلك
لم أحتج يوماً لأقف مقابل المرآة لأصفف شعري
جعلته قصيراً كما الرجال
لم أعرف مساحيق التجميل إلا ما شاع: الكحلة ومطرّي البشرة
بشرة وجهي جافة، وأدهنها وأنا خارجة من البيت دون مرآة
قليلة هي المرات التي سمعت فيها غزلاً من الرجال
لكن رفيقاتي أخبرنني أنني جميلة، وأن فيّ حيوية، وعيناي الزرقاوان فيهما جاذبية
لم أتوقف عند ذلك كثيراً
لم أعرف البكاء
فأنا جادة. ملامح وجهي جميلة وجادة معاً
دققت في الوطن وأنا أعود. تفحصته من نهر الأردن، إلى أريحا، إلى القرى التي تطوق الطريق، إلى رام الله، إلى المخيم
كنت استكشفه، وأتعرف عليه
لم أبك حين بكى أهل زوجي الشهيد عمر السبيعي

حين التحقت بالوظيفة في وزارة الشباب، وحين التقيت ببلال، وحين وجدت صديقاً بكيت.
وأنظر في المرآة الآن لأتعرف على نفسي، وأتعرف على ما كنته وأنا شابة، أبكي
وحين أجد أن الحياة غير التي رسمتها، أبكي
أبكي وحدي الآن
أود لو أبكي من جديد

أحترم بلال كثيراً. هو صديقي كما تعاقدنا. لكنه يظن أنني أود أن أقطف ثمار نضالي، وسمعتي كزوجة شهيد. حين التقينا في أريحا في مؤتمر الحزب الثاني. كان يود أن يستمع لكل الخطابات الافتتاحية والختامية. كان يود أن يستمع لكل المداخلات من مندوبي المناطق، وكان يختلط بالذين يعرفهم والذين لا يعرفهم. ربما كان يود ترشيح نفسه لقيادة الحزب. سألني: هل سترشحين نفسك؟

- لا، طبعاً.
- لماذا طبعاً؟
- لأنني مللت المراكز القيادية، أريد أن أعيش حياتي العادية. وأنت؟
- لا أعرف، أظن لا.
- ما رأيك في أن نتجول في أريحا، مدينة القمر؟

شربنا الشاي هذه المرة في متنزه الشجرات السبع، ودلفنا إلى قصر هشام. قال: هنا كان يجلس.

- وهنا كان يتجول.
- وهنا كان يحكم.
- وهنا كان يسبح.
- وهنا كان ينام.
- وهنا كان يخاطب الناس.
- وهنا كان يلهو.
- وهنا كان يحلم.
- بماذا كان يحلم؟
- بأن يكون له أصدقاء.
- وهل كان بلا أصدقاء؟
- كان هو الحاكم، وصداقاته جاءت بهذه الصفة.
- ماذا تود أن تقول؟
- أقول إن صداقتك أكثر متانة وأنت لا تتبوأين مراكز قيادية.
- هل أنت فعلاً لا تريد مراكز قيادية في الحزب؟
- لا، طبعاً.
- لماذا طبعاً؟
- لنظل أصدقاء.

لا أود كتابة سيرتي. لماذا فكرت فيها؟ إنها تتعبني. اصاب بالدوار، أبكي، أرتجف، أغلق الباب عليّ فلا أرى سوى الماضي، الماضي الذي صنعني، وشكلّني كما أنا الآن، لكنه يقيّدني. هو مختزن هناك، في مكان ما في جسدي، في هذا الرأس الذي يعلوه. غطته السنون، وأنا أحاول إزالة الغطاء. إني أعيش في الماضي. أبدأ من حيث ولدت، ورضعت، ومشيت، ورحلت، ورحت، وجئت، وراحوا بي وجاءوا.

إن الكتابة تمنعني من الحياة، ومن التواصل مع الحاضر، ومن أن أبني مستقبلي. أي مستقبل! قال بلال: حتى لو تبقت بضعة أيام أو سنين، فهي مستقبل. هل أحفر في الماضي؟ نعم، لكني أود أن أعيش حياتي، ولا أستطيع.

أشعر بالخوف، بعدم اليقين. ألعن الوطن والناس. أشعر بسجن يحاصرني. أود لو أسافر. أنطلق من جديد، أرى ما لم أره بعد، أسوح في مجتمع لا يسألني: من أين؟ إلى أين؟ أشارك في لقاءات عديدة في الوطن وخارجه.
في الخارج، يأتي المشاركون ويسألونني: كيف هو الوطن؟ ما الذي تغيّر؟ كيف هي حقــوق المرأة؟ ما هو الجديد؟ ما دوركن أنتن اللواتي عدتن؟ عرضوا عليّ أن أدير مؤسسة في قطر تعني بالثقافة. عرضوا عليّ راتباً لم أتصوره في حياتي. عرضوا عليّ مسكناً أشبه بالقصــر، لكني أشتاق إلى الوطن على علاّته. هم في الخارج يحببونني بهذه العلاّت. يبــدو أننــي أنــا المعتلة.

أحب السفر. آه لو أسافر مع بلال، لكنه يحب السكون، ويحب الهدوء، ويحب الشتاء والمطر.

بلال يستمتع بالمشاركة في المسيرات، ويستمتع بالمشاركة في تشييع جنازات الشهداء، ويستمتع بقراءة الكتب، ويروح يرويها، ويحللها وينقدها، ويلف حولها وهو ينظر إليها من زوايا مختلفة.

حين يتحدث عنها، تكون غاية متعته. يدخل في التفاصيل، ثم يصعد فوقها، يداعبها ويرسمها، ويلحنها ويغنيها، ويحرك كامل جسده معها. إنه يعيد تمثيل ما شاهده أو قرأه. يقف أحياناً وتكاد يداه تلامس السقف. يحاكي كل الذي في الغرفة، الأثاث والجدران، وتلمع عيناه، وهو يخاطبها، ويخاطبني، ووجهه الأسمر، يتلون حسب الموقف. سالته: أين هي حياتك؟ ألا تود أن تعيشها؟

يصمت، يستغرق، يفكر، يُصدم، ثم يقول: ربما أصبحت مرضاً متغلغلاً فيّ، أعيش معه، وأستمتع به. ربما هذه حياتي. أود أن تتغير، ولا أستطيع.

عرض عليّ أن نحضر حفلاً معاً. كثرت عروض فنانين استضافتهم السلطة بمحافظيها. كان العرض في ساحة معهد المعلمين التابع لوكالة الغوث. كان الحفل صاخباً، مزعجاً، والشباب كان صوتهم أكثر صخباً. كانت الساحة معارك بينهم، فهم لا يعرفون كيف يفرحون، ولا كيف يرقصون، ولا كيف يغنون. انسحبت الفتيات، وأنسحبت الأسر، وظل الشباب يتزاحمون على الصفوف الأولى، بعضهم حمل مقعداً، وجلس أمام الصفوف. كلهم كانوا في الصفوف الأولى وبعضهم جلس على حافة المنصة. لا الشرطة استطاعت منعهم، ولا خطابات المحافظ ومساعده. خرجنا من الحفل، وحكيم يغني بصوته القوي، ويرقص، ويتفنن في إبعاد الميكروفون عن فمه، ويزيحه يمينا وشمالاً، ويقول: "أفرض مثلا، مثلاً يعني، إني خاصمتك يوم". الفرضيات متعددة، وليست بحاجة لفحص، ليست بحاجة لاختبار. أحب لو أستمع لمطرب أو مطربة في قاعة مغلقة. أن نتمايل بهدوء، وأن نضحك ونبكي بهدوء. هكذا هو بلال، وهكذا هي أنا.

يوم ولدت، كوفلوني بالأبيض، ونزلت وأمي الجبل، هي تتألم وأنا أبكي. حين ضحكت أزالوا الكوفلية عن جسدي، ورحت أسرح وأمرح. وحين بلغت، تعلمت أن أكون جدية، وأن أشارك في أعمال الوطن. غابت الابتسامة عن محياي، وغابت الدمعة أيضاً. اليوم، وبعد اليوم، عاد الحزن والارتباك إلى قسمات وجهي، وصرت أبكي. أخشى أن أبكي. أخشى أن يلبسوني الكوفلية من جديد. أنا سعيدة بالتعرف إلى بلال، رغم أنه يكون جدياً كثيراً في أحيان. أحب ضحكته ونكاته، فهذا يجعلني أبتسم وأضحك، فلا ألبس الكوفلية.

كان حزيناً وكنت حزينة. كان غاضباً وكنت غاضبة. قال: منعوا كتابي من التداول بين طلبة المدارس.

- لماذا؟
- لأن فيه بعض العبارات والألفاظ التي تتنافى مع أخلاق شعبنا وقيمه.
- وما هي هذه العبارات؟
- التي تعرفينها، ويعرفها كل الناس.
- ألم تكتب عن الحياة؟
- نعم.
- قرأت كتابك، ولم أجد فيه ما يتنافى مع قيم شعبنا وأخلاقه.
- وأنا لا أجد ذلك. هم لا يفهمون رموز ما هو مكتوب.
- من الذي قرر توزيع الكتاب على الطلبة؟ ألا يتحمل هو المسؤولية؟
- طبعاً يتحملون. قالوا إن شكاوي عديدة وصلت من الأهالي، ولذلك منعوه.
- أتعرف أن من العيب أن تكون السلطة نسخة قديمة من الدول العربية.
- هي تقول عكس ذلك، لكن ممارساتها كذلك.
- وما العمل؟
- لا أعرف من أين نبدأ. سأزور وكيل الوزارة، وأقدم له شكوى.
- لماذا تقدم شكوى؟ هو يعرف ما جرى.
- ربما لا يعرف، من الأفضل مناقشته.

في مكتبه كان يجلس، ومصوّر يدور حوله، يحدّث بلال مرة، ويصرّ على المصوّر أن يلتقط له صوراً أفضل من الماضية، لأنه سيعرضها على الصفحة الالكترونية.

قال لبلال: نحن لم نمنع الكتاب.

- لكن الكتاب منع.

دخلت المكتب وهما يتحدثان.

- أهلاً ساما.
- ماذا ستفعلون مع قضية كتاب بلال الذي صودر وأتلف؟
- لا نعمل شيئا.
- ألا تجد أنكم تتساوقون مع النهج المحافظ، وأنتم تريدون بناء دولة حديثة؟
- بالنسبة لنا، لم نفعل شيئاً.
- أنتم تتغيرون.

خرجت وبلال. كان حزيناً، وكنت حزينة، كان غاضباً، وكنت غاضبة. ولم نفعل سوى أن تحدثنا في الأمر.

كنت غاضبة، وكان غاضباً. كنت غاضبة لأن أهل زوجي تم طردهم من المخيم وحرق بيتهم. اندلع خلاف بينهم وبين جيرانهم، فأمسك سلفي بمسدس وقتل جاره. كان شاباً في مقتبل العمر كان جميلاً ويافعاً، لكنه قتل. كان غاضباً، لأن قريبه في بيتونيا قتل ابنته. كان يعمل في الأمن وكان يحمل بندقية. كان يعبث بها، يتمرن عليها. انطلقت رصاصة وقتلت ابنته. هو في السجن الآن، لكن القتل ليس متعمداً حسب تقرير الشرطة. لا أعرف كيف سيعيش سلفي ما تبقى من عمره. لا أعرف كيف سيعيش قريب بلال ما تبقى من عمره.

عرفت أن بلال عرف سما من قبل، وهو يعرف قبلها كثيرات، ربما مثلي أنا. عرفت كثيرين مروا، وعرفني كثيرون. عرفت أن علاقات الحب تنتهي حين ينتهي الحب. تمنيت أن يكون لي صديق. لم أستطع أن أفعل ذلك. أنا سعيدة بصداقة بلال. لا يهمني إن كان يحب غيري. لا يهمني إن كانت علاقته بغيري أفضل من علاقته بي. أنا أحب صداقته. سأحافظ على هذه الصداقة. أخبرني أنه على وشك إقامة علاقة عاطفية مع متزوجة. أيقنت أن نهاية علاقته إلى زوال. هو يريد السكينة والهدوء، وأنا كذلك. علاقته بسامية ستنتهي، وسنظل أصدقاء.

جاءني زياد ثانية. كان كعادته يحاول أن يقنعني بأنه يراني من الداخل. جلس وطلب مني أن يشرب شاياً في الأكواب الصينية التقليدية. هو لا يشرب شايا إلا بها. وراح يحدثني عن الطبيعة. حكى عن مناظر الطبيعة وهي تكتسي بالثلج. وهي تلبس ثوبها الأبيض، مثل العروس تماماً.

- وبعد؟
- رأيتك بالأمس تلعب بالثلج مع ساما.
- هذا صحيح.
- رآك كل الناس تلعب بالثلج مع ساما.
- هذا صحيح.
- رآك كل أهل الحي، وأنت تلعب بالثلج مع ساما.
- هذا صحيح.
- رأيتك وأنت تمسك ذراعها، وتعكران صفو الطبيعة.
- بل نرسم لوحة أخرى.
- رسمتماها بأقدامكما.
- وبأيدينا.
- خطواتكما ما زالت تترك آثارها في الحي.
- هذا صحيح.
- ستظل هذه الآثار باقية.
- لكن الثلج سيذوب.
- وستبقى آثاركما.
- ستذوب.
- إنها آخر ما يذوب.
- لماذا؟
- لأنكما صنعتماها بأقدامكما.
- وستذوب.
- لكنها ستبقي حية في عيون الناس.
- الصور ستتلاشى بعد حين.
- الذين أقابلهم يقولون إن هذه خطواتكما. لعبتما، ومشيتما، وضحكتما، وتعانقتما.
- صحيح.
- أأخبرت زوجتك بهذا الأمر.
- لا.
- لو كنت مكانك لأخبرتها.
- ماذا أخبرها؟
- أن ساما صديقة لك.
- وما هو الهدف من ذلك؟
- حتى تمنع نفسك من الخطأ.
- لقد اخبرتها.
- أتزوركم؟

- وننزورها.
- اذن أنت في أمان.

قال: أشعر بأنك محبط قليلاً.
- لست كذلك.
- اذن أنت مرتبك.
- قليلاً.
- لماذا؟
- فات الكثير من العمر، ولم أفكر بنفسي.
- مذا تريد لنفسك أن تكون؟
- أود لو اخترق العادات والتقاليد. أو لو أكون غيري.
- ماذا ستفعل؟
- كل الذي لم أفعله. أزعر مثلاً.
- كم عمرك الآن؟
- في نهاية الأربعينيات.
- وهل تستطيع أن تتغير؟
- أود ذلك.
- بعد هذا العمر.
- سأعوّض ما فاتني.
- لن تتغير، لكن من الجميل أنك تحلم بالتغير. من الجميل أن تشعر بأنك غير الذين حولك. أنصحك أن تتصالح مع نفسك.
- أنت تخذلني كما تفعل في كلّ مرة.
- بل أن تعيش الواقع وتقفز عنه قليلاً.
- وماذا لو قفزت عالياً؟
- أخشى أن تقع.
- سأجرب الوقوع.
- أخشى أن يكسر رأسك.
- سأجربه.
- حاول إن استطعت. أشعر أنك لن تفعل.

- أحس بالعجز يا زياد.
- لماذا؟
- نتحدث عن الثقافة، ونحن بعيدون عنها.
- نحن قريبون منها.
- كيف؟
- ألا نقرأ ما يكتبه غيرنا؟
- لكن، ما كتبوه يمثل وجهة نظرهم، يمثل ثقافتهم، ولا يمثلون ثقافة المجتمع الذي نعيش فيه.
- كيف؟
- ألا تلاحظ أننا بالكتب وبالقراءة لا نسمع الناس؟
- لكننا نرى الناس، في العمل وغيره.
- هل يعني أننا نقود الناس؟
- إلى حد ما.
- ماذا نفعل نحن؟
- سنظل نعيش بين الكتب والدفاتر.
- إلى متى؟
- إلى أن يفرجها الله.

سامية

قلت لزياد: زوجتي تتحداني
أخذ جلسة المفكر، بشعره الأشيب الأملس، وشاربيه الحليقين، وبشرته البيضاء التي يتميز بها، وبنطال الكابوي الذي لا يلائم عمره، وبلوزة القطن التي لا تجلب لبشرته الحساسية. أخذ جلسة الحكيم، وقال كمن يريد أن يتمعن في الكلمات التي قلتها: ماذا قلت؟ أعد ما قلته.

- زوجتي تتحداني.
- في ماذا؟
- أن أنحرف.
- لماذا؟
- لأنها تثق بي.
- هذا جميل.
- لكنها تتحداني.
- ماذا قالت؟
- قالت: أعرف أنك لن تعرف غيري.
- وهل عرفت غيرها؟
- لا.
- اذن كلامها صحيح.
- لكنها تتحداني.
- هل قبلت التحدي؟
- قلت لها: نعم.
- هل تتحداها؟
- لا أعرف، لكنها تتحداني في جرأتي، تعتقد أني جبان في هذه المسألة.
- ما أجمل أن يكون الإنسان جباناً.
- كيف تمدح الجبن؟
- لأن الجبن صفة إنسانية.
- أنت تحبطني في كل مرة.
- لا يعرفك إنسان أكثر من زوجتك.
- قالت: أنت رحت إلى أوروبا، وأمريكا، والخليج، وأفريقيا، وستدور العالم كله، وستبكي حين تبتعد عني.

ضحك كثيراً.

- أنت تضحك مني.
- بل أضحك مني أنا.
- لماذا؟
- لأننا أنقى من هؤلاء الذين يتظاهرون بالدين مرة، وبالقيم والأخلاق مرة أخرى.
- هل سنبقى كذلك؟ جبناء؟
- دعنا نناقش الأمر مرة أخرى.
- ألا نخرج من هذا القمقم؟
- أتحلم به؟
- نعم.
- وأنا كذلك.

كالعادة جاء، قبل الثامنة كان هناك، رغم أنه يعمل مثلي في إدارة مؤسسة ثقافية غير حكومية، يود أن يشرب سيجارة قبل أن يتوجه إلى مكتبه، ويلتقي بزبائنه. تطلّع فيّ يتفحصني. قـــال: سمعت فيروز هذا الصباح.

- هذا جميل. ماذا قالت؟
- قالت: بتمرق ما بتمرق، مش فارقة معاي.
- هل تفرق معك أنت؟
- بتفرق.
- كيف؟
- هذه الليلة، مارست أجمل الطقوس.
- أية طقوس؟ الشرب؟ الأكل؟ الحب؟
- كل هذه معاً.
- بالترتيب؟
- بالترتيب.
- وماذا رتبتم؟
- ما أجمل أن تجعل الطبخة تستوي بهدوء.
- ما هو الهدوء الذي في النار.
- أن تجعل النار تلامس الطبخة، ولا تنهي الطبخ بسرعة.
- أعرف أنك تقصد شيئاً آخر.
- وينطبق على الطبخ بالمعنى الحرفي أيضاً.
- أن تشرب بهدوء وروية دون أن تحس بأنك تشرب.
- لكن علينا أن نفكر بأنك ستلتحق بدوام المؤسسة صباحاً، وتتابع مشاريع عملك، وتعمل على تثقيف الناس.
- إذا فكرت بهذه الطريقة لن تستمتع بالحياة.
- بل أضطر أحياناً أن أقوم بأموري بسرعة.
- دع الأيام والساعات تسير، ودع حياتك كما هي. حياتك هي المهمة.
- يخنة الخضراوات هذه تحتاج إلى هدوء.
- اية خضراوات تقصد؟
- كل الخضراوات المتوفرة، كل التي تجدها أمامك. كلها تصلح للطبخ. تضعها على نار هادئة، وكلما أوشكت أن تهمد، تضيف خضراوات من جديد، وتبدأ بالاستمتاع بالطبخ، وكأنك تفعل ذلك أول مرة.
- جربت ذلك.
- أكان جميلاً؟
- جميلاً جداً.
- اطبخ بهدوء. يمكنك أن تتذوقها من وقت لآخر، لكن لا تشبع. بل أطل الطبخ إلى أقصى مداه.
- ألم تحرق الطبخة معك يوماً؟
- إذا لم تقلّبها، أي أن تجعل الأجزاء الأخرى تستوي بنفس المستوى تحرق.
- ألم تحرق الطبخة معك يوماً؟
- بل حرقت، لكني أتعلم منها في المرات اللاحقة.

- ماذا تريد أن تقول يا زياد؟
- أحدثك عن الطبخ.
- ألا تأكل أحياناً خارج البيت؟
- حين كنت أعزبا فعلت ذلك.
- أنا لم أفعل.
- أعرف، لكن الأكل خارج البيت جميل هو الآخر.
- ها أنت تجمّل لي الأكل خارج البيت.
- نعم هو جميل، لكني أذهب وزوجتي نستمتع بما يفعلع الطباخون في الخـــارج، وحـــين نعود نطبخ وجبتنا في البيت.
- أنت تحبطني مرة أخرى.
- اسمع: "بلا حكي فاضي"، لو كنت تستطيع أن تأكل خارج البيت وحدك لفعلـــت، ولمـــا أخبرتني بشيء.
- وددت أن أجد من يشجعني.
- لن أشجعك، لأني جبان.
- وهل نستطيع؟
- لا أظن.
- اذن ما الفائدة من هذا الكلام المعسول الذي أسمعه منك وأنت تتحدث مع الآخرين؟
- أشحن نفسي لأعود إلى البيت.
- أتعرف يا زياد، حين آكل في البيت، لا أجد طعماً لأي أكل أراه خارجه.
- أتعرف يا بلال، إنني أجوّع نفسي في البيت، حتى استمتع بمنظر الأكل خارجه.
- لماذا؟
- حتى أعود متلهفاً للأكل داخله.
- أنت جبان.
- وأنت مثلي.
- أتدري يا زياد، لو مددنا الأمر على استقامته، أفهم لماذا السلطة تنشغل كل هذه الفتـــرة بالعملية السياسية.
- كنت سأخبرك.
- ماذا ستخبرني؟
- أنت تتوقع أن أقول لك حتى يشعر الشعب بمتعة الطبخة، حين تستوي، لكنها غير ذلك.
- يمكن حتى نظل ندير مؤسساتنا الثقافية.
- ويمكن حتى نشعر بالمتعة.
- لكننا لا نشعر بها.
- لأننا نغمض عيوننا عن ما هو ممتع.
- أيوجد شيء ممتع؟
- كنا نقول في السابق: الله يفرجها.
- وما زلنا.
- لكن الله كان قد أفرجها من قبل، ولم نكن نشعر بمتعة الانفراج.
- اذهب من أمامي. أريد أن استمتع بقراءة بريدي الالكتروني.

كنت أتفحص البريد الالكتروني كعادتي كل صباح في مؤسسة الأندلس للثقافة، أضع فنجان القهوة "النسكافيه" على يميني والسيجارة في شمالي. سمعته يفتح باب مؤسسة الفينيق لثقافة الشباب. لم يدخل هناك، فتح الباب فقط. جاء ودار حولي، يحاول أن "يتحركش" بي. ينفث سيجارته بهدوء، وينفضها بهدوء، ويتلصص نحوي. كنت أراقب ذلك، وهو على علم به. يستر جسده بمعطف يشبه الذي يلبسه رجال الشرطة. وقف كمن يريد أن يحرر لي مخالفة، يترصدني، فإذا بها تأتي، وتقول: مش معقول، الشمس والقمر يسهران معاً في الصباح. ضحكنا معاً. كما لو أن هذه العبارة لم نسمعها. قلت: تلبسين اليوم بشكل مختلف.
أجابت: أنا اليوم رائدة فضاء، وأريد أن أرحل إلى القمر، ودفعت برواية "أحدى عشرة دقيقة" أمامي.
قلت: المركبة يلزمها تصريح من باراك حتى ترحل.
خرجت وهي تضحك.
غاب قليلاً، كمن يريد التوجه إلى مؤسسته، فلحقت به.
أبطأ من مشيته. وقف في صالة الاستقبال، وقال: منذ أيام وأنا أحاول الإجابة على سؤال يحيرني.

- ما هو سؤالك؟
- ما الذي يجذب النساء إليك؟
- نساء؟
- سما وساما وسامية.
- وما الذي يجذب النساء إليك؟
- أتعرفهن؟
- هنا، وهالة، وهانية.
- يبدو أن كلينا يتصرف لجذبهن، وفي النهاية يجد لنفسه مبرراً.
- ما الذي يجذبهن إليك؟
- لأني لطيف معهن، أقرأ نظرات عيونهن، وأريد المزيد.
- ثم تتصدى لهن.
- نعم. أوقفهن عند الحد الذي لا أستطيع الاستمرار فيه.
- يعني تنصب الفخاج لهن، ثم تطلق سراحهن بعد اصطيادهن.
- نعم. لكن الإجابة على سؤالي وجدتها.
- ما هي؟
- ربما قطعتك كبيرة. وضحكنا بشكل هستيري.
- ربما، لكني لا أعرف ما هو سر الجاذبية فيّ سوى صراحتي.
- صراحتك التي تصل لحد الممارسة.
- بالحكي.
- لم يبق الكثير.
- لا أريد الباقي.
- اذن أنت جبان.
- أنت مثلي.
- بل أنت مثلي.
- قل ما تريد، لكننا نقوم بما يقوم به كل البشر ببراءة.
- براءة؟

- نعم. نحن مجرد أطفال نستمتع باللعب، ولا نستطيع اختراقه.
- طلب مني مدير إدارة المؤسسة أن أغيّر في محتوي الندوات التي أعقدها.
- ماذا طلب؟
- أن لا تكون المواضيع معقدة، أن لا تكون في الفكر والفلسفة، بل أن تتناول قضايا ثقافية تجذب الجمهور.
- أنا أعاني من المشكلة نفسها، فالجمهور الذي يأتي لحضور ندوات "الأندلس" قلّ كثيرا، حتى بتنا ندعو الناس لتناول عشاء، ونتحدث في أمور عامة.
- الفرق بين "الفينيق" و "الأندلس" أن الأولى تخاطب كل الناس، بينما مؤسستنا تخاطب الجيل الشاب.
- عملكم أسهل، يمكن أن تتكلموا عن الحب الجميل، الحب الإنساني.
- الحب؟
- نعم.
- فكرنا أن يحب هذا الجيل وطنه، وثقافته. هذا كان قصدنا.
- وفي هذا حب أيضاً، ولو لم يكن هناك حب حقيقي لما كانت هناك ثقافة، ولما كان هناك وطن.
- إنك تتحدث عن نفسك.
- وعن نفسك أيضاً.
- إنه مرض جميل، لكن كن حريصاً أن لا يقتلك.
- هذا ما أخشاه.
- إذا لم يكن باستطاعتنا رد الدبابات الإسرائيلية بمثلها، فيجب أن نردهم بالحب.
- ماذا تقصد؟
- أن نحب بعضنا، وأن نجعل الناس يحبون بعضهم بعضاً.
- هل نستطيع أن نخطط لندوات تحت رعاية مؤسستينا، ونجذب جمهورينا، ونقدم تقريرين متشابهين، كل يقدمه للجهة الراعية لمؤسسته؟
- أنا أوافق، لكن يجب أن نستشير الممولين، وأعضاء الهيئتين الإداريتين لمؤسستينا.
- يجب أن نصوغ تقريراً يحول دون معارضتهما.
- لماذا؟
- لنعيش.
- نعم، نعم. هل تكتب عن دور مؤسستك في جذب الجنس الآخر؟
- سأكتب عن ذلك، لكني أخاف من الذين حولي.
- ومن هم هؤلاء؟
- نحن في مدينة بيرزيت، ليست هي بالمدينة، وليست هي بالبلدة.
- لكن الشباب والفتيات يملؤون الساحات والشوارع.
- هذا جمهورك.
- وجمهوري هم هؤلاء وأهاليهم.
- بل قل من هم في عمر أهاليهم.
- هل يرضى المدير بما تكتبه؟
- ربما لا يرضي.
- هذا ما استطعته، وأترك له الحكم.

- هل يهمك رأيه؟
- كما يهمني رأيك.
- وماذا كتبت؟
- سيكون هو أول من يقرأه.
- وهل أقرأه أنا.
- لماذا تود قراءته؟
- كي أتعرف إلى نفسك.
- بل ستقرأه كي تتعرف إلى نفسك أنت.

لا ترحل عني

لا تبرر لي سبب افتراقنا. لا تفسر لي أسبابك. ربما كان يجب ألا نلتقي. كانت صدفة جميلة وغمّ على قلبي. كانت صدفة، ربما سيئة، أن أتعرف إليك، وتقطعني بعدها. أنت الذي أنـــرت لي طريقي. ضللته قبل أن أعرفك، وأنت أشعلت لي شمعة في طريقي الموحش. كنت مترددة قبل أن أعرفك، فمنحتني الشجاعة. كنت نبعاً كاد أن ينفد، وأنت بعثته من جديد. كنت قمـــرا، فأصبحت نجماً، وعرفتك، ثم ارتددت مرة واحدة. وددت أن نسير معاً، وأن نبني معـــاً، وأن نحلم معاً، لكنك ظللت تحلم، أنت تحب أن تحلم، وأنا أحب المسير. رســـمت لـــي الطريـــق، ورسمت لك الطريق، رسمناها معاً، لكنك مشيت معي نصف الطريق، وظللت مكانك تحلـــم، وأنا أود المسير. هل تسير؟ أم ستظل تحلم؟

صداقة

هل تعرف كم تعذبني صداقتك؟ قبل أن أتعرف إليك، إلى صداقتك التي تدّعي. كنت حرة. كانت الخيارات مفتوحة أمامي. أنت ترهقني، وترهق صداقتي، وترهق حبي، وانتقل من تعب إلى أرهاق. أحببتك لأنك غير الآخرين، لكنك تصر أن تكون مثلهم. أدرك أنك لن تكون كذلك، لذلك أحببتك.

تبدو أحياناً ساذجاً مثل فلاح يعيش بين أشجار الزيتون، طبيعياً مثل راعي أغنام يعيش معظم وقته في البرية، ومجنوناً. يبدو الجنون عليك وأنت تكبح جماحك. إنـــي أرى هـــذا الجنـــون وأحبه. لا تبدُ مثل فيلسوف خبر الأيام وخبرته. لا تكتم مشاعرك نحوي، فإني أراهـــا. إنـــي أعيش معها. أنت لست محايداً. أنت لا تستطيع أن تكون كذلك. أعرف ذلك، فلا تخفه. أحياناً أكرهك، وأحياناً أحبك، فأحب تطرفك، لأني لا أود العيش في المنطقة الوسطى. أنت تعطـــي ولا تأخذ. يدك العليا، ويد الآخرين هي السفلى. أنت تحب زيارة الناس، ولا تحب أن يزورك أحد. أنت تسأل عني طوال الوقت، ولا تحب أن أسأل عنك. ربما ترجو رحمة الله، والله لـــن يرحمك إن لم أرحمك أنا. أنت تحاربني، لن أحاربك بمثل سيوفك. ســـتعترف لـــي بحبـــك، وسيكون هذا سلاحي. أنا تعبة، وأنت تزيد تعبي. أنام مع خناجرك التي تطعن صـــدري، ولا من مجيب. أنت تحارب الهواء. اقبل بصداقتك، لكن بشروطي، أن تكون حب الصداقة. لـــن توهمني بشيء غير الذي أنت فيه. أنت تحبني يا صديقي.

المحاكمة

أتريد أن يعترف كل منا بذبنه، أم يعترف كل منا بذنب الآخر؟ أنتقاسم الـــذنوب معـــاً نصـــفاً بنصف؟ أم أتحمل أنا الذنوب كلها؟ أنمثل أمام القاضي ليفصل بيننا؟ أتكون المدعي أم المتهم؟ أنتقاسم الأدوار، ونتبادلها؟ أنبدأ من حيث كنا أم من حيث ما نحن عليه الآن؟ أتريد أن أصرخ، وتصرخ أم يلقي كل منا مرافعته بهدوء؟ أنقول ذلك لفظاً أم بنظراتنا؟ أنتناول كـــل الحكايـــا والقضايا أم نختصرها حيث نحن؟ أنلجأ إلى القوانين الوضعية أم السماوية؟ أتريد أن نفعل ذلك أمام الجمهور أم نكون كلانا المدعي والمتهم والقاضي والمحـــامي؟ لنختصـــر الطريـــق يـــا صديقي، بل هذه هي التهمة. أنت تسميها صداقة وأنا أسميها حباً. نحن مذنبان، فكلما وافقتـــك على أن ما بيننا صداقة، رحت تسبّل عينيك لتجعلها حباً. كلانا يعيش في الدائرة نفسها.
بنينا بيتاً من زجاج، فرشقه البشر. بنينا بيتاً من طين، فجرفه المطر. بنيناه من شعر، فجاءته النار. نحن نعيش في عالم من الحقد والحنين. تخيلنا أن نعيش في سكون وسط هذا الضجيج، وأن نعيش في الفضاء ونحن لا نفارق الأرض، فجاء البشر والمطر والنار والشـــيطان كـــان ثالثنا. الشيطان يعيش في عقولنا. الشيطان! لا، إنه ملاك العشق. إنه العشـــق. إنـــه الشـــيء الجميل، يدغدغ مشاعرنا، ويحرك خطواتنا، ويوجه تفكيرنا. دعك من الأقاويل، وما نفعله ليس إلا الحياة، الحياة التي أريد، وتريدها أنت، لكنك تنكرها أحياناً، وأعترف بها كما هي، وقلنا ، وقلنا..
عزفنا سيمفونية جميلة، فمن منا الذي أخطأ؟ أتريد أن يعترف كل منا بذنبه؟ أنفتح المســـتور ونفضحه؟ أم تريد أن نبقى جزءاً من السر الأبدي؟

لا يهمني من أكون أنا في نظر الناس. المهم عندي أني عرفتك. أحبني كثيرون، أحبني ابـــن عمي، وجاري، وزميلي في العمل، وسائق السيارة الذي أركب معه. أحبني كثيـــرون، لكنـــي أحببت واحداً اسمه بلال.

عاشق

كانت معي قبل قليل، ودعتني على أمل اللقاء، ربما غداً، بل صباح غد بالضبط. نزلت من السيارة وراحت. صرت كالمجنون، يجب أن أراها اليوم ثانية. بحثت عن مكان أركن فيه سيارتي، كانت الشوارع مزدحمة، وكانت الحركة بطيئة، بطيئة جداً، وأنا أبحث عن مكان. درت في هذا الشارع، وعرجت إلى الشارع المقابل، والثالث، والرابع. لم أجد مكاناً إلا بعد مرور وقت. ربما وصلت البيت، ربما ما زالت تتسوّق. يجب أن أراها في السوق أو في الكراج. ركنت سيارتي في مكان بعيد، وصرت أركض. يجب أن أراها. أين ذهبت يا عزيزتي؟ أين أنت الآن؟ درت في الشوارع التي من المحتمل أن تكون فيها. درت في أزقة الكراج علني أجدها. لم أجدها.

يا الله كم أنا منهك. رجلاي لم تعودا تحتملان جسدي النحيل، جسدي نحل أكثر هذا اليوم. ازدادت زفراتي، وأنا أحاول أن أجمع الهواء إلى الداخل، الناس يملئون الأرصفة، والشوارع مليئة بالعربات، لا أجد مكاناً أمشي فيه، اصطدم بهذا وبتلك، ولا آبه لذلك. أعدت الكرّة لأراها، ربما تلك، لها نفس الملامح، بل هي، ألحقها فأجدها واحدة أخرى. ربما تلك. أوشك أن أناديها، لكنها ليست هي. أين أنت يا مجنونتي؟ ماذا فعلت بي؟ أنا مجرد إنسان جاوز الخمسين، وأركض في الشوارع كمراهق، أبحث عن إبرة في كيس تبن، كيف أجدك يا متيمتي؟

أوقفني صديق، حاول أن يشرح لي أمر "الأندلس" التي أعمل فيها. كنت شارداً. قال: يبدو أنك مشغول. قلت: نعم. ماذا جرى لي! قضينا معاً ما يزيد على الساعة، درنا في كل شوارع المدينة. مدينة! لا إنها بلدة صغيرة. ما أصغرك يا رام الله. لم أجد مكاناً أجالسها فيه. ضاعت الأماكن. كلما تذكرت مكاناً أجد أن كل الناس تعرفني. أنا أهرب من الناس، وهي كذلك. قالت: سنظل في السيارة لأن كثيرين يعرفونني. قلت: وأنا كذلك. إلى أين نذهب؟ ظللنا ندور في الشوارع، حتى تعبت منا. مللتها، لولا وجودي معها لمللتها أكثر. أين أنت يا مدينة رام الله؟ أين المدنية التي فيك؟ لا أجد مكاناً أجلس فيه مع مجنونتي. كل الأماكن معروفة، ومعلنة، لكن لا نجد ما يناسبنا. بل ربما كل الأماكن مناسبة، ونحن الذين نهرب منها، نحن نعرف أننا نقوم بأعمال غير مقبولة على المجتمع، فنهرب منه. لكن إلى أين نذهب؟ رام الله محاصرة، حاولت أن أسلك طريق بير نبالا، وصلنا طرف الجدار، وعدنا. سلكت طريق عين قينيا، وكان الحاجز العسكري يقف أمامنا، فعدنا. رحنا طريق عين عريك، وقبل أن نصل إلى البلدة، عدنا.

أنا أعترف بأن اللقاء كان جميلاً، أمسكت بيديها طويلا، ومسدت عليهما، وضغطتهما، وهي فعلت كذلك، لكننا اكتفينا بلمس الأيدي. قالت: هل تصدق؟ أنا وأنت أخيراً معاً؟ لا أصدق. التقي بحبيبي. ونحن ندور، وجدت الدنيا جميلة، كانت أجمل مما أتصور. كانت الشمس تطلع من أجلنا، والغيوم الخفيفة تظهر من أجلنا، والشجر، والحجر، وكل شيء. كانت هالة تغلفني وتغلفها معاً، كنا مثل إلهين قررا أن يخلقا العالم من جديد، كنا مثل طفلين يودان أن يلهوا، ولا يجدان غير نفسيهما محطة للهو. كنا ذكرا وأنثى. صرنا لا شيء، وصرنا شيئا.

اشتريت شريطاً فيه أغنية "كن صديقي" وهي تقول "كم جميل لو بقينا أصدقاء" لماجدة الرومي. ألسنا أصدقاء؟ ماذا نحن الآن؟ هل نقول ذلك لمجرد أننا نردد أغنية دون معرفة معانيها أم لأننا تجاوزنا الصداقة؟ هل نحن في ورطة حتى نشعر بالندم؟ ما هي الورطة؟ أصدقاء؟ أحباء؟ نسرق مجرد لحظات لنلتقي؟

فجأة انقلبت. لم تعد هي هي. صارت غير التي أعرفها. قالت: أنت لا تحبني، أنت تحب جسدي.

قلت: لا، بل أحبك، وأنا أخشى على جسدك من حبنا.
قالت: بل نعم.
قلت: بل لا.
طلبت أن أمسك بيدها، فتمنعت، وقالت: ما بزبط.
قلت: بزبط.
قالت: لا.
أمسكت بيدها، فكانت هذه المرة باردة، ليس فيها حيوية، ليس فيها حرارة. صرخت: ماذا جرى لك؟ صرخت: ماذا جرى لك؟
ربما شكّت أني حاولت لمس شفتيها، ربما رأت في ذلك اعتداء عليها. لكن هذا لم يحدث أبداً. ربما حلمنا أن التلامس قد حدث. وماذا في ذلك؟ لقد حلمت بأكثر من ذلك؟ وماذا في ذلك؟ ألا يحق لنا أن نحلم؟ لم نرتكب خطيئة. الخطيئة في هؤلاء الذين يكثرون من الحديث عن الخطايا. نحن بشر يا عالم.
أمسكت برأسي، وبالياقة التي تلف رقبتي، كنت أقود السيارة، وخفت أن أصطدم بآخرين، خفت. قلت: لا، لا تفعلي ذلك. قالت: سأجعلك تتسبب في حادث. قلت: لا. قالت: نعم. صرخت: يكفي. لماذا رفعت صوتي؟ لماذا أحبطتها؟ من حقها أن تمسك بي أين تريد. آه لو فعلت، لكنها كانت هي الأخرى حذرة، وودت لو أمسكت بها من كل مكان في جسدها. قالت: أنت تريد جسدي، ولا تريدني! نعم أريدك أنت، ولولا هذا الجسد، لما أحببتك. أريدك أنت بجسدك وأفكارك، وجنونك، وحيويتك، وكسلك، وهبوب العاصفة، وصفاء الجو، والطهارة، والنجاسة، والحلاوة والمرارة. بكل في ما الدنيا من أشياء.
في الطريق إلى البيت، شعرت بأن جسدي بدأ يبرد، وشفاهي جافة، جافة جداً. أمسكت بمنديل، ومسحتها، فإذا ببقايا تكسوها. ما هذا؟ آثارها عليها! آثار جفاف حلقي! آثار خوفي! آثار مغامرتي! مغامرتك؟ بماذا غامرت؟ أنت مجرد أهبل. صبية مثل النعناع، تأتيك رغم ظروفها، وتقول لك: أحبك. وتلتقي بك على المنارة، وتغامر لتركب معك في عربتك، وتقبل يديك، وترمي كل العالم وراءها، وأنت لا تحسن التصرف. تقول لك: هذا أنا آتيك. وأنت أهبل، لا تستطيع فعل شيء، لا تسمعها كلمات جميلة، لا تطير معها فوق السحاب، لا تقبلها، لا تشدها نحوك. هي أجرأ منك يا سبع الرجال؟
عدت إلى البيت منهكاً متعباً. بدأت رائحة العرق بالظهور. قررت أن أستحم، لكني، حاولت تأخير ذلك قدر الإمكان. يجب أن أحتفظ بهذه الرائحة أطول مدة ممكنة، إنها رائحتها، إنها رائحتنا، إنها رائحة لقائنا الأول، وهل يكون هناك لقاء ثان وثالث، ولقاء طويل طويل؟ يا الله كم أنا غبي!
استحممت. صليت. ركعت. سجدت. قرأت. صمتّ. استلقيت على الكنبة، لا أقوى على الحديث، لا أقول شيئاً، مجرد إنسان منهك. ركبتاي تعبتان. آه لو أنام. كيف أنام؟ شربت القهوة، ودخنت سيجارة، لكن مزاجي لم يتغير، كنت منتشياً إلى أبعد حد، وكنت مؤرقاً، وكنت قلقا، وكنت هائماً ما يزال يتعرف على المكان الذي هو فيه. كنت كمن أبحر، ووصل الشاطئ ولا يعرف أين هو بالضبط. إنني أتعرف على حالتي. ما هي هذه الحالة؟ هل أنا عاشق؟ هل أنا هائم؟ أين أنا الآن؟ لم أقو على تحريك شفاهي، ولم أقو على النوم، ظللت كما أنا دون حراك.
لماذا لم أحضنها؟ لحظة وانتهت. لم أحضنها، لم أقبلها، لم أشعر بزفيرها وشهيقها. كانت عني بعيدة، بعيدة جداً. اقتربت بعض الشيء ثم ابتعدت. يا أهبل، هل ستراها كل يوم؟ طبعا لا، لماذا لم تستغل الفرصة وتفعل كل ما تريد؟ ماذا تريد؟ لا أعرف، والله لا أعرف. آه لو حضنتها، لو شعرت برأسي يلامس رأسها، وصدري يلامس صدرها. كنت مع أنثى، ولم تحترم أنوثتها. احترام أنوثتها هو أن تلمس هذه المعالم، وتقول لها ما تشعر به. تتغزل

بشفتيها، وبلسانها، وبعيونها، وبصدرها، وبردفيها، وبساقيها، وبكل شيء، بلون غطاء الشفاه، وبلون ثيابها، وبحذائها. لماذا لم تحضنها؟ لماذا لم تقدر هذه النعمة التي جاءتك من السماء؟ ربك أنزل عليك الغيث، ولم تزرع. جاء بالربيع ولم تقطف وروده. جاءك بالصيف ولم تحصد. أهبل.

هل تراك مرة أخرى؟ يجب أن أراها. لماذا تراك؟ لأني أحبها. أنت أفشلت هذا الحب في نصف ساعة. أنت حطمته. خيبت أملها فيك. ماذا أفعل يا ربي. يا رب: دع الأيام تتح لنا اللقاء مرة أخرى. يا رب: اخل ساحات رام الله. يا رب: وفر لنا جواً نلتقي وحدنا، وسأعدك بأني لن أخيّب ظنك. ولن أخيّب ظنها. يا خايب، يا جبان، إمرأة بكل ما في الكلمة من معنى، تأتيك، ولا تأتيها.

لم أنم تلك الليلة، ولا أعرف ماذا سأفعل، لكن خدرا لذيذا ظل يكسو شفتي، وخبلاً كثيرا يكسو كل جسدي، وأنا أسأل: أين أنا؟ ويأتيني الجواب: واحد أهبل يا أهبل.

الامتحان

لم ألاحظها من قبل، ربما رأيت وجهها، ربما أعرفها. رأيتها تندفع مرة واحدة من نهاية ممر الحافلة إلى أوله، تحمل كتاباً، تحضّر دروسها، وتنتظر أن تتحرك الحافلة.

كان قد مر علينا حوالي ربع ساعة لتمتلئ مقاعد الحافلة بالطلاب والعاملين في الجامعة ومن يتوجهون شمالاً أو غرباً، وكان قد مر علينا نصف ساعة ونحن نمشي من طرف الحاجز إلى الطرف الآخر، وسائقو الحافلات يصيحون في بعضهم. كل يريد أن لا يضيع دوره في تحميل الركاب، وبائع القهوة ينادي الناس لتذوق قهوته، وبائع الجرائد يصيح أن هناك أخباراً جديدة.

توقفت الحافلة بأمر من جنود دورية عسكرية وجدناها للتو، وأصر جندي أن يرى بطاقة هوية كل منا. صعد إلى الحافلة، وراح يصوب البندقية نحو طالب، ويطلب الهوية. سأل: ما اسمك؟ قال: هو مسجل عندك في البطاقة. سأل: أين تسكن؟ قال: كل شيء موجود في البطاقة. إلى أين أنت ذاهب؟ كم كتاباً تحمل؟ ماذا يوجد في الكتب؟ هل أنت إرهابي؟ ماذا تفعل مع أختك وأمك؟

بين شدّ وشدّ، مروان يقف بعضلاته المفتوله أمام الجندي، ويرفض أن يجيب أكثر مما هو مسجل في البطاقة. طال الزمن، وسامية تمسك كتابها، تتطلع نحو الجندي مرة، ونحو الكتاب مرة أخرى، يبدو أنها تتهيأ لامتحان.

قاربت الساعة الثامنة صباحاً، والجندي مصمم أن "يربي" باقي الركاب من خلال مروان.

الساعة الآن الثامنة تماماً، وتريد سامية أن تصل.

اندفعت نحو مقدمة الحافلة حيث السائق ومروان والجندي، فإذا بها تصرخ فيه، وتصفعه بكل قوتها على وجهه، وتعود حيث كانت، تفتح كتابها وتذاكر.

بين الخوف والسكون، رفع الجندي بندقيته نحو سامية التي تذاكر دروسها، فإذا بمروان يقف بصدره أمامه، وكذلك وقف باقي الطلبة. رأت سامية هذا المنظر، فإذا بها تصيح، وهي تندفع ثانية نحوه. جاء الضابط. تجمهر حول الجنود جمع غفير من الطلبة والمارة وقرر أن يكمل سائق الباص مشواره إلى الجامعة.

وكانت الساعة الثامنة والربع، ولا أعرف إن تقدمت لامتحانها أم لا.

الأندلس

كنا نعقد ندوة حول ثقافة المواجهة في "الأندلس". كنا قد دعونا طلاب الجامعة للحضور. جاءت وقت الظهيرة، ولا أعرف إن نفعتها مذاكرتها في الحافلة وقت الامتحان. لم أشأ أن أسألها. فكما أحببت جرأتها، خشيت عليها. كانت صبية في أوائل العشرين وقتذاك، طويلة، حنطية البشرة، شعرها يلامس كتفيها، بل أطول من ذلك. جريئة، ومبتسمة. قالت: أنا أحب المواجهة. قلت: نحن نؤسس لثقافة المواجهة.
قالت: لماذا الأندلس؟

- لأنها من التاريخ المشرق في حياتنا.
- ولماذا الفينيق مقابلكم؟
- لأنهم يبدأون من أول الوعي.
- ولماذا تبدأون من منتصفه؟
- لأنهم لم يتركوا اسماً قديماً إلا أخذوه: نطوف، وعشتاروت، وأنومااليش، وكنعان، وكريت، وغيرها.
- ولماذا تبدأون من منتصفه؟
- لأنهم لم يتركوا اسما حديثاً إلا أخذوه: الكرامة، عين الحلوة، الكومونة، الشاطئ، وغيرها.
- ولماذا لم تأخذوا اسم مدينة أو قرية فلسطينية؟
- لأنهم لم يتركوا اسماً إلا أخذوه: حيفا، يافا، الرملة، عين كارم، وغيرها.
- أتقصدون أن تعيدوا الأندلس؟
- بل أن نعيد أمجاد الحياة التي عاشوها في الأندلس.
- لكنها انتهت إلى دويلات؟
- أخشى أن ننتهي إليها، لذلك نعمل على الفعل في الثقافة.

جاءت في اليوم التالي، وسألت: هل يمكن أن تريني ماذا يوجد في هذه القاعة؟

- نعم، إنها مجرد لوحات تفتح العقل.
- هل يمكن أن أراها؟
- نعم.

جاءت في اليوم الذي بعده بصحبة مروان، وقفا أمام صورة لتحلل الضوء من خلال منشور زجاجي، وقفا طويلاً وهما يتناقشان. قال: الضوء الذي نراه له لون.
قالت: الضوء الذي لا نراه له لون.
قال: كل له لون.
قالت: كل له لون. وهناك ألوان لا نراها.
قال: ما هي الألوان التي لا نراها؟
قالت: لا نراها.
قال: لا نراها.

جاءت في اليوم السابع، وجدت زياد في مكتبي. قالت على مسمعه: هذا الرجل أكرهه. شعرت بالخجل أمامه، لكنها كانت تبتسم، ولم استطع تفسير هذه الابتسامة. سألها زياد: أنت رائعة حين تشاركيننا نشاطاتنا، أنت تكونين شعلة بين زملائك.

- عرفت زملائي من خلال نشاطات "الفينيق" رغم أنهم زملائي في الجامعة.
- أما زلت تكتبين خواطر، وتحولين الثقافة إلى أدب؟
- نعم، الفينيق أثّر فيّ كثيراً.

في اليوم العاشر، جاءت ومروان، دخلا إلى قاعة الاجتماعات مباشرة، لم يعيروني اهتماماً. وقفا هناك وكانا يتناقشان أمام الصورة. فإذا به ينسحب بعيداً، ويخرج. سمعت همهمة وبكاء خافتاً. خرجت إلى الممر فإذا بها أمامي تبكي، وقبل أن أسألها، قالت: أليست هذه الصورة جميلة؟ وأشارت إلى تحلل الضوء من خلال المنشور الزجاجي، وإلى الألوان السبعة التي كانت في الأصل لوناً واحداً. قلت: طبعاً جميلة. سألت: ولماذا هذا التناقض في موقف مروان؟ وافقني قبل مدة على أنها جميلة، وأن هناك ألواناً لا نراها، وبتنا نلتقي كل يوم ونتغزل بجمال الصورة، ونبحث عن تلك الألوان المخفية. لكنه قال اليوم إن الصورة ليس فيها أي نوع من الجمال، لأن الألوان الموجودة هي الألوان التي نراها فقط. قلت: الصورة جميلة على كل حال، ويبدو أنه يريد معاكستك.
بكت بحرقة. جاءت السكرتيرة تحاول أن تهدئ من روعها، اصطحبتها إلى المكتب. أجلستها على مقعد مقابلي، وسألتها: هل تحبينه؟

- المسألة ليست هكذا، لكنه شاب متناقض.
- ولماذا يغضبك أن يرى الصورة غير ما ترين؟
- لأنه متناقض؟
- وماذا في ذلك؟ هو حر.
- أحب أن أرى الرجال وهم ثابتون على مواقفهم.
- وهل هذا موقف؟
- ما ينطبق على هذه الصورة ينطبق على غيرها.
- وماذا غيرها؟
- هو يعتقد أن الألوان ثابتة، وأنا أعتقد أن كل يوم ينتج لوناً جديداً.
- هذه ليست نقطة خلاف.
- بل خلاف. كل يوم في هذه الحياة هناك شيء جديد: الناس، والحشرات، والجبال، والنار، والغيوم، والمطر، وكل شيء.
- يبدو أني لا أستطيع التدخل في الأمر. أوافقك. "الأندلس" مفتوحة أبوابه، لتشاهدي هذه اللوحة وغيرها. كل منها فيها فكرة ما. أنت ذكية بلا شك.

جبان

ألومك يا صديقي الحبيب. درت بي في شوارع رام الله دون أن تجد مكاناً نجلس فيه، دون أن نتوحد. قلت إنك تسكن وأسرتك. قلت إنك وحدك. مكان بيتك لا أعرفه، ولا يعرفني الناس هناك

لو عرفته لجئتك، لأعلنت الأمر أمام زوجتك، لكنك جبان، لأنك خشيت من جيرانك. مم الخشية؟

لنكون معاً، يجب أن يرانا الناس، لنكون معاً، يجب أن يعرف الآخرون بأمرنا. ماذا لو أخبرتهم بأننا ننسق لنشاط ما في "الأندلس"؟ هل سيشكون فينا، وأنا بعمر بناتك؟ أنت تتهرب مني. تريدني، ولا تفعل. كرهت الزواج، وأنا لا أريدك زوجاً، وأنت لا تريدني زوجة. أنت رجل متناقض، تسبح في الخيال، وأنت تعيش في الواقع. تهدد نفسك بالآخرين، وهم ربما لا يدرون بما تفعل. تظهر للناس بصورة المثقف المتنور، وأنت تعيش ثقافة مجتمعك. أتفهم قليلاً لماذا تخاف. لأنك لا تعرف نفسك. أنت تعيش في عالمين: عالم الثقافة والكتب، وعالم الواقع التقليدي. تعتقد أنه يمكن الجمع بينهما. تجد تبريرا لكل حالة. من يود صنع الحياة لا يعيش حياتين متناقضتين. أنت مثل السلطة ترفع شعار العلمانية، وتكون غير ذلك. أتفهم ذلك، لكن ألا تضحي من أجلي؟ من أجلك؟ ماذا تريد؟ قل لي بالله عليك، ماذا تريد؟ ألا تود أن تعيش حياتك؟ لو أستطيع أن أعيش حياتي معك، فتتغير.

في يوم غابت

– أنا أحب الرسم والموسيقى.
– أنا استمتع بهما لكني لم أمارسهما.
– أنا أحب الشعر والشعراء.
– أنا لست بشاعر.
– أحب الأدب، وأحب الكتابة الإبداعية.
– أستطيع مساعدتك.
– أي الكتب تقرأ؟
– ماذا لو قرأت "الياطر" لحنا مينا؟
مر يومان، فإذا بها تأتي، وتقول: لم يعجبني حنا مينا.
– لماذا؟
– لأن زكريا المرسنلي كان ضعيفاً.
– بل كان قوياً وهو بين الناس.
– وكان ضعيفاً حين كان وحده. لأ أحب مثل هؤلاء.
– اقرأي لغيره، وإذا استطعت مساعدتك لن أتردد.
– أحب ندوات الشعر.
– لم نعقد ندوات مثل هذه.
– مؤسسة الأندلس، ولا تعرفون الشعر.
– بل نعرف الشعر الأندلسي، ونستمع للحنه.
– تقصد فيروز؟
– وصباح فخري.
– لكن الناس يقولون إن الشعر الأندلسي أقرب إلى النثر، بل يقع بينهما.
– ما رأيك أن نعقد ندوة حول الأدب الأندلسي؟
– ويكون المتحدث فيه من الأندلس.
– سأحاول مع أصدقاء يعيشون هناك.
توقفت عن الحديث برهة. نهضت من مكانها، ذهبت إلى القاعة التي فيها الصورة، ورجعت، ثم سألت: هل يمكن أن تقرأ ما أكتبه أنا؟
– نعم.
أخرجت ورقة من جيبها، وقالت: اقرأ هذا النص، وقل لي رأيك.
– ولماذا لا تقرأنيه أمامي أنت؟
خرجت وهي تقول: هذا للقراءة وليس للقول.
قرأت

في يوم غابت، تلفت حوله فلم ينتبه أن صوت السماء صدى، وأن الرحيل خيال. في يوم غابت، تراءت له كأنها لن تعود، فمزّق حبراً وصار رماداً، وأنى انتهى صوته عنها، وحين اكتوى الموت كفّه، تاهت وحارت، وصارت بقايا، وصار بقايا. تلوّن بالصوت حيناً، وحيناً تناهى على قمة الدفء، ولكنه حزين. ترى هل تعود! ترى هل يعود! لكن سماءه غنت حين تلاقت بعينيه عيناها. هل يدري أن حدود الزمان التغت، وأن حدود المكان تلاشت، وأن ملامح وجهه أجمل حين يغني لها؟ وحين يغني كان يغني القدر. أراه من الليل أهدأ، وأصفى روحه

من حلمها، وكانت تغني وكان يغني حين تغني، وحين يغني كانت تنام بكف القدر، كأن لا والد لها غير تلك الملامح وذاك الكلام

وما زلت أقرأها منذ سنة، ولا أفهم ماذا تريد

طين

كنا نتراكض لنستقل العربة إلى بيرزيت، مشينا بين العربات الكثيرة المتجمعة هناك. أحدهم ينادي سلفيت، وأخر ينادي طولكرم، جنين، الرام، الجلزون، عبوين، الطور، .... المسافات بين العربات لا تتيح لنا فرصة للحركة، ننحرف نحو طرف الشارع اليمين، فإذا بنا في القناة المعدة لمرور مياه الشتاء، فنتجه نحو طرف الشارع اليسار، فإذا بنا في حاكورة لتنغرز أقدامنا في الطين.

جلست أمامي في المقعد، وقالت: كيف يمكنني أن أدخل إلى غرفة الصف وأنا في هذا الحال؟ ماذا سيقول زملائي عني؟

دققت في ملابسها الأنيقة، وتسريحة شعرها التي بللها الماء، ولاحظت أن أرضية العربة قد انطلت بالطين، طلبت مني محارم ورقية علّها تنظف حذاءها قبل الوصول.

شعرت بالحرج، وهي تذكر اسمي ولا أذكر اسمها. أنا أعرفها، هي التي رأت الألوان التي لم يرها زميلها. اسمها على طرف لساني ولا يستطيع نطقه. قلت في نفسي: حين أصل، وقبل أن أقرأ بريدي، سأتفحص الورقة التي قدمتها لي، وأقرأها مرة أخرى. ربما أجد اسمها.

لم تعد لتسمع رأيي، خشيت أن تأتي، وأقول لها: لم أفهم ما كتبت.

قلت في نفسي: كلنا كتبنا ما يشبه كتابتها حين كنا في مثل عمرها. دعها تحلم. دعها تركّب الكلمات والعبارات، لتبوح بشيء، فيصبح شيئاً لا يفهمه سوى كاتبه.

مطر

كان الجو ماطراً ونحن نمشي في طرف الحاجز القريب من رام الله، نمشي بين العربات الكثيرة التي يحاول كل سائق أن يصل إلى النقطة القريبة من الركاب بأسرع وقت ممكن. نادتني بأعلى صوت، كنت أحمل المظلة منعاً للبلل. قالت: احمني من المطر بمظلتك. مشينا معاً، وهي تحدثني عن العذاب الذي تلاقيه على الحاجز.
سألتها: لماذا لا تحملين مظلة في هذا الجو الماطر؟

- أحب أن أرى الأفق البعيد، وأنا لا أستطيع حمل حقيبة كتبي وأوراقي والمظلة، ربما أتزحلق في أي وقت. إن جعل إحدى يدي حرة يساعدني في الحفاظ على توازني.
- لكنك تبتلين.
- بمجرد أن أصل الجامعة أتدبر نفسي.

انقطع المطر هذا الصباح، ركبنا العربة معاً، أصرّت أن تدفع الأجرة عني.

أمطرت بغزارة ونحن نعود معاً، وأصررت أن أدفع عنها أجرة العربة.

***

صفا الجو، لكن المياه تنزلق على الشارع، رحت أتطلع في هذه الجهة أو تلك علني أجدها. خشيت أن ألفت انتباه الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم. تحاشيت أن أرافق أحدهم فيصعب علي الاعتذار حين أجدها.

سمعت صوتاً من ورائي يقول: انتظر. حين اقتربت، قالت: لم أرك منذ فترة طويلة، أين أنت يا صاحبي. سعدت لهذه الكلمة، وخشيت أن أفسرها بمعاني أخرى لا تقصدها. مشينا معاً، فإذا بها فجأة تطوّق ذراعها حول ذراعي، شعرت بالحرج أمام الذين أعرفهم ويعرفونها، وأنا أحاول أن أجعل الأمر طبيعياً لا يحمل أية معان. فإذا بها تهمس في أذني: يا رفيقي انتظرتك، وبحثت عنك، أريد أن أمسك بيدك حتى لا أتزحلق وأقع أرضاً وأنفضح أمام زملائي.

أحبك

وأنا في المكتب، وهي في المدرسة المجاورة.
في اليوم الأول التقينا. تحرشت بي وفهمت أنه مجرد مزاح على الطريق، وتحرشت الزميلات بتحرشنا. في اليوم الخامس عشر القت تحية الصباح وراحت. في اليوم العشرين، ورغم وجود زملاء لي في المكتب، قالت: كل عام وأنت بخير بمناسبة عيد الحب، فتحرش بي الزملاء لأصبح محل تندر لهم. في اليوم الخامس والعشرين، قررت أن أعرف من هي هذه الصبية، وأنتقم منها حسب وجهة نظر الزملاء. ذهبت إليها وقلت لها بصراحة: جئت لأنتقم. وطلبت عنوان بريدها الإلكتروني. أعطتني إياه، جربت، لكن كان العنوان لأخرى تشبهها في الاسم. نسيت الأمر ليومين، فربما تفهمني بشكل غير، ربما تشعر بتدفقي عليها، فإذا بها تتصل، وتأتي إلي، وقررنا أن نتحادث مراسلة. في اليوم الثلاثين، زبط الاتصال. تحدثت معي بشكل لطيف، وكانت لطيفة. في اليوم الحادي والثلاثين، قالت لي: دعنا نعترف، نحن نحب. أربكتني، تحب! أحب! لم أشأ قطع الاتصال، لكني صرت مثل المجنون، صرت مجنوناً. حاولت التحدث مع آخرين لأنسى الأمر، قالوا لي: أنت غريب هذه الأيام، هناك ما يشغل بالك.
خبأت نفسي، خبأت مشاعري المتناقضة، وقلت إن الأمور كلها على ما يرام. في اليوم الثاني والثلاثين قالت: أحبك رضيت أم لم ترض. في اليوم الرابع والثلاثين، قالت: اشتقتلك، لأنني يوم أمس لم أرك، وجئت رغم الثلوج من أجلك. كنت أعرف أنك ستأتي، وها قد أتيت. في اليوم الخامس والثلاثين، قالت: أحبك أكثر، وأحببت أغاني الحب. وقلت لها: أحببتها أنا أيضاً. قالت: أحبك، وسأظل أقولها، حتى تعترف بأنك تحبني. التقينا، والتقينا، وقالت: أحبك. أنظر في عينيها وأحبها، أحبها أكثر. أخيراً، أرسلت لها كلمة "أحبك". في اليوم التاسع والثلاثين، طلبت رقم هاتفها وندمت، خفت أن يفضحني. خفت أن يكشف أمرنا، فهي متزوجة، وأنا لا اريد كسر عالمها الاجتماعي، وربما هي كذلك، لو أعطتني إياه هل استعمله؟ لو أعطيتها رقمي هل تستعمله؟ أم هو مجرد سر من الأسرار؟ في اليوم الأربعين، حصلت على رقم هاتفها، وحصلت هي على رقمي.
رجعت إلى البيت، جددت شحن الجهاز، وجعلته صامتاً، خفت أن يفضحني. سجلت اسمها في الجوال "سامي". وضعت الجهاز في جيبي، حتى لا ينتبه أحد إلى رناته، أو إلى ارتجاجاته إذا ما اهتز. خبأته، لكني كنت أفحص من وقت إلى آخر، إذا ما اتصلت بي. آويت إلى الفراش، ووضعته قربي، فوق رأسي على السرير. لامسته، وخبأته تحت الفراش، قبلته، وحضنته بحرارة. أغمضت عيني، وقبلته. ها أنا أصبح مثل العاشقين، خبأته أكثر، وحلمت قبل أن أنام، وبعدها.

ماذا يجري؟

ماذا يجري هذه الأيام
كل يوم ينقطع الاتصال ببريد المحادثة. ينقطع عدة مرات، لا أعرف السبب. ربما هناك من يراقبني، ربما يأتي أعضاء من الهيئة الإدارية ويمسكون بي متلبساً. لم أعد أقوم بأي عمل سوى محادثتها. خفت أن يأتوا. وماذا لو كان؟ لا يهمني، إني أتحدث عن حبي، إنها تتحدث عن حبها. سأقف على رؤوس الأشهاد، سأقف على رأس الجبل، وأصرخ: أنا أحب يا جماعة.
أليس دور مؤسستنا هو نشر الثقافة الليبرالية! أليس دور "الأندلس" هو نشر الثقافة المنفتحة!
من هو الذي يستطيع محاكمتي!
إذا كان الثمن هو الرمي، فليكن، سأموت وأنا أحبها، والأفضل أن نرمى معاً. من يستطيع رجمنا، لنقف على رأس الجبل، ونحن نقوم برجمهم، لأنهم يفعلون كل شيء بالسر، يكذبون ويتحدثون عن الصدق. يخونون ويتحدثون عن الأمانة، يلحدون ويتحدثون عن الإيمان. يزنون ويتحدثون عن الطهارة. كلهم نجاسة ويتحدثون عن النظافة.
أأخشى أن يراقبنا أحد! لماذا أخشى ذلك؟ هل أنا جبان! هي قالت لي ذلك. قالت إني أخاف. نعم أخاف، أخاف على مشاعرنا، أخاف على مشاعري على الأقل، أريد أن تبقى، فهي تهزّ كياني، ولماذا يظل كياني ساكناً؟ نعم أخاف، نعم أنا جبان، وهل الجبن إلا وجه آخر لحب الحياة؟ وأنا أحب الحياة. تصور، تصوري أني سأحمل سيفاً، وحين يلقاني أحدهم، أقول له: أنا ذاهب لأحب. هل يعقل ذلك؟ بل أنا أحمل هذا القلب الدافئ، وأحمل عينيّ الناعستين، وأحمل يديّ المرتجفتين، لأعبر بها عن حبي. أنا جبان يا أيها القوم. أتعرفون لماذا؟ لأني أحب. هي على الأقل قالت لي ذلك. قالت أحبك، وأنا لا استطيع مقاومة ذلك، وجدت فيها ما يحب، وبس.
انقطع الاتصال مرة أخرى، وما زلت أحاول إعادة ربطه، وربما هي كذلك. إلى اللقاء في الاتصال القادم

الحجل

ماذا لو كان هذا الشعور كله زيفاً في زيف؟ ماذا لو كانت هذه المخلوقة، هذه القردة، هذه الملعونة، تلعب بعواطفي؟ ماذا لو كان كل كلامها كذباً في كذب؟ ماذا لو كانت تريد أمراً آخر؟

مالك يا بلال؟ أتسرح بهذه الأفكار الغريبة؟ طبعاً، أنا غريب، ولدت غريباً، وربما سأظل كذلك، وما هي مصلحتها؟ هي متزوجة، وتقول لي: أحبك. ما هي مصلحتها، في مجتمعنا هذا، أن تقول لي أحبك، وأن تتغزل بي؟ ما هي مصلحتها أن تلفظ الكلمات التي يخجل أن يقولها الآخرون؟ ما هي مصلحتها وهي تتطلع فيّ وترسل بريق عينيها سهاماً في صدري؟ ما هي مصلحتها وهي تداعب شفتيها يميناً وشمالاً؟ ما هي مصلحتها وهي تداعب الطاولة بصدرها وهي جالسة، وتداعب ردفيها وهي ذاهبة؟ ما هي مصلحتها وهي تمسك بيدي، وتشدها نحوها؟

افرض يا بلال أنها ... أفرض ما تشاء. افرض ما لا تشاء. افرض ما حدث. افرض ما لم يحدث. افتح الفروض على مصراعيها. أغلقها إن شئت. افرض أن علاقتنا عابرة، وأن كل شيء سيتغير. اسأل نفسك يا أهبل: ألا تحس بالفرح وأنت تحبها؟ قل، أجب.

نعم، أنا أشعر بالفرح، أشعر بالانتعاش، وبأن الأرض لا تسعني، وبأن كل ما في الكون وجد من أجلي. أشعر بكل شيء جميل، بأني أطير، وأحلق في السماء. أعلو فوق الضباب، وأرى الجو صافياً. أشعر بأن كل خلية في جسمي عاد لها النشاط. أشعر بقلبي يرتجف من جديد. يرجف يا ملعون! قل: ابن ملعون، ابن ستين شليته، قل ما تريد، وأنا أفعل ما أريد، بل أحس بما أحسه وبس. إني أشعر بالفرح وبس. سأقول في يوم من الأيام، إني عشت حباً جديداً. سأكتب، وسيقرأه أبنائي، أني كنت أحب، وسيقولون في يوم ما: كان أبونا محباً، نعم نحن أولاد المحب. أحب فتاة جميلة، عيونها ساحرة، فمها يثير من لم يثر من قبل. طولها، ومشيتها وهي تلبس الفستان أو البنطال كأنها لم تلبس شيئا. نحن يا قوم مجرد عراة، ندلل على عرينا بما نلبسه من ثياب. الثياب هي مجرد إثبات لهذا العري.

سأموت وأنا أحب. عندها سأحتضن التراب وأحبه، لأنها تمشي عليه، ولأن أصلها منه، وستعود إليّ. ظننت أن الجنس الاخر لا يعني لي شيئاً بعد الطلاق. خمس سنوات وأنا أستمتع بهذه الحياة، وأنا أختلي بنفسي، وأنا أعيش بين الكتب والتلفاز والانترنت، وأنا أعتقد أني أستطيع أن أغير من ثقافة الناس، فإذا بها تأتي. لم أخطط لذلك، لكنها أتت، مثل طير الحجل أتت، من تحت الحجر أتت، من التراب أتت، وأودعتني حباً، وحناناً وعشقاً. إني أعيش معه، وسأعيش معه.

لم أفعل

لماذا لم أفعل؟ لماذا لم أقل لا؟ لماذا لم أتهرب منها؟ لماذا لم أخف مشاعري؟
لم أفعل. كان في استطاعتي، حين مازحتني في اللقاء الأول، أن أظل جامداً، أن لا أتفاعل مع الموقف، أن لا أمزح، أن لا أشاركها المزاح. لكني لم أفعل.
كان في استطاعتي حين جاءتني وتحرشت بي، أن ارفض تحرشها، وأن أكون رجلاً على حد قول الزملاء. لكني لم أفعل.
كان في استطاعتي أن أظل جامداً حين بدأت تلاطفني، وتتعرف على شخصيتي من خلال عينيّ، أو من خلال حذائي. ماذا رأت في عينيّ؟ ما هو السحر فيها؟ أنا لا أرى سحراً. وقفت أمام المرآة لأبحث عن هذا السحر الذي تحدثت عنه، لم أره في البداية، وافترضت ثانية أنه موجود، ويجب أن أراه. قلّبت المرآة مرة في مواجهة الضوء، ومرة أخرى، وأخرى، فاكتشفت أن هناك سحراً. لا تسألوني ما هو، فقد اكتشفته ورأيته.
ماذا رأت في حذائي؟ وكيف تعرف سر الرجل من حذائه؟ هذا الحذاء اشتريته من السوق مثل كل العالم، وهو لا يمثل موضة العصر. إنه فقط حذاء. كان بإمكاني أن ألبس حذاء آخر. ما هو الفرق؟ ما هو السحر الذي رأته في الحذاء؟ كيف تكون شخصيتي في الحذاء. أعدت النظر فيه، فلم أجد شيئاً. مجرد حذاء والسلام. عرفت من الأصدقاء الذين تعلموا في الاتحاد السوفييتي أن على المرء أن يرتب كل ما يلبس بما في ذلك الحذاء. حتى الحذاء يجب أن يكون مرتباً، وملمعاً، لكني وجدت حذائي عادياً. فما هو الغريب فيه؟ ومرة أخرى كيف تكون شخصيتي في حذائي؟
كان في استطاعتي أن أرفض عرضها بحبي. كان في استطاعتي أن أقول إني لست قدر حبها، وأن أرفضه، وأن ألعنه، أو أن اجلس معها وأقول: شوفي يا بنت، بعدك صغيرة، وأنت لم تجرّبي الحياة مثلي. الحب عندي ضاع منذ زمن. أنا أعيش حياتي العادية. أنا أعيش حياتي راضياً مرضياً والسلام. وماذا تفعلين بهذا الحب؟
في الحقيقة قلت لها ذلك. لكنها قالت: بلا مكابرة، نحن نحب. أنا أحبك وبس. ترددت عشرات المرات، وفي النهاية قلت لها: أحبك. صارت تحضر إلى مكتبي، صارت تحضر إلى مكان عملي، وتقول: أحبك، اشتقتلك، أموت فيك. كنت أبتسم دون أن أجيب، أبتسم وأدق نظراتي نحو الأرض. قالت: لأول مرة أعرف أن الرجال يخجلون، وأنا أحب هذا الخجل. إنه يسحرني. وظللت أخجل، وظللت أسحرها كما قالت. كان بإمكاني أن لا استقبلها، لكني كنت أفعل. كانت تأتي، أود أن تذهب، وأود في الوقت نفسه أن تبقى.
كان بإمكاني أن لا أخرج معها. كانت تقول "تعال"، فأروح. وحين نلتقي، تقول: يكفي. لكنها تبقى أكثر وأبقى.
كانت تتصل بي هاتفياً، وتقول: أريد أن أسمع صوتك، فأضحك، وتسمعه. وكنت أنا الآخر أتصل بها، وأسمع صوتها حتى دون أن تعرف من الذي يتصل بها. كان بإمكاني أن لا أفعل.
لماذا لم أفعل؟ لماذا؟ لم أفعل.

لماذا لم أفعل؟

أغرتني. قالت لي: أحلم بك. قالت: حضنتك، عريتك تماماً، رأيتك كما أنت، رأيتك وأنت بكامل ثيابك، أنت بالنسبة لي صفحة مكشوفة. أنا أعرف أنك تحبني، حتى وأنت لا تقولها. قلت: أود لو أقبلك. قالت: أخشى أن ينتهي حبنا. قلت: لو أعرف كيف تكونين؟ قالت: حين أريد شيئاً آخذه، حتى لو لم ترده أنت. دع الأشياء تأتي وحدها.
مشينا هنا وهناك. انفردت بالمشي بجانبها. قالت: كم أنا مشتاقة. قلت: وأنا كذلك. قالت: كم أحبك. قلت: وأنا كذلك. قالت: كم أود لو أحضنك. قلت: وأنا كذلك.
قلت: اشتقت لك. قالت: أنا اشتقت أكثر. قلت: أحبك. قالت: أنا أحبك أكثر. قلت: كم أود لو أعصرك، واشربك في الليل والنهار. قالت: أنا جاهزة. قلت: أريدك. قالت: أنا كلي لك.
قلت: هل أقبلك. قالت: أخشى عليك. قلت: يجب أن أقبلك اليوم، نعم أو لا. قالت: نعم.

حين التقينا، لم أفعل. تطلعت فيها، وتطلعت فيّ. قالت: اجلس. لم أجلس. قالت: نذهب، وذهبنا. في اليوم السابق جاءت في الصباح، مدت يديها، احتضنت يدي، وبرفق أمسكت بها، وقالت: كم أحبك. في اليوم التالي، قلت: لم أقبلك. قالت: هات يدك، أعطيتها، قبلتها. وطلبت يدها، وقبلتها.
قلت: هل نلتقي؟ قالت: نلتقي
قلت: متى؟ قالت: لا تخطط لشيء، سنلتقي.
قلت: وأقبلك؟ قالت: لا تضع خططاً، أنا لست مشروعاً في مؤسستك.
قلت: أين نلتقي؟ قالت: لا تحدد. الأماكن ستنادينا حين تريد.
قلت: ماذا نفعل؟ قالت: لاشيء غير الذي نفعله.
قلت: وماذا نفعل الآن؟ قالت: إننا نحب، وهذا يكفي.
قلت: لماذا لم نفعل بالأمس؟ قالت: لماذا لم نفعل بالأمس؟
قالت: دع الأيام تقل. لا تقل شيئاً، فقط أحبك، لو تعرف كم أحبك، لو تعرف ماذا سأفعل بك حين تتاح لنا الفرصة، لو تعرف كيف سأبرهن لك أني أحبك. إني أحبك.

قصة حب نوّرية

الأيام رائعة بوجودك الآن. أنت أيقظت فيّ كل المشاعر. في مرة من المرات، سألني مسؤولي: متى ستكتب عن الحب؟ أجبته: أنا أكتب عن ما بعد الحب. قال: بعد الحب هناك حب، وقبله هناك حب. صمتّ دون أن أجيب، لكني هذه الأيام أكتب عن الحب. ما دمنا بهذه الصراحة، سأقول لك شيئاً، مرة أحببت بنت نورية، وقررت وقتها أن أكتب "قصة حب نورية"، لكنها طلعت نورية. قال لي صاحبي يومها: يعني هل تفتح بالكف؟ هل تصيغ الذهب؟

كانت مجنونة، لكنها ربما مثلك، أرادت أن تتزوج، وتملك أسرة، واليوم وراها "عر أولاد". التقيتها بعد سنوات وأنا متزوج، وقالت: أنا أحق فيك من زوجتك. قلت لها: هذه هي الحياة.

لم نلتق بعدها، ولا أحب أن أراها. لم تعد مجنونة، لكن بعد أكثر من عشرين سنة، طلعت لي واحدة مجنونة، أكثر جنونا مما عرفت. اسمها سامية، فإذا بها تمسك حبلا غليظاً، تضعه حول رقبتي، وتشنقني إلى أعلى. آسف اسمها الشاطئ، وسمتني الزورق، وهي تريد أن يعبر الزورق، والزورق لا يعرف من أين سيعبر. دار في طرق رام الله، ولم يعرف من أين يعبر. كانت مشاعره أكبر من أن يرى أو يعرف الطريق. كان تائهاً. لعنة الله عليه.

حب مع الزواج

ثمان وأربعون ساعة مرت دون لقياك، وبقي اربع وعشرون أخرى، كيف ستمر؟ الله أعلم.
أمسك بالهاتف، أخشى أن يرن، وأود لو يرن. نعم، سيفعل ذلك الآن، ويمر الآن دون أن يفعل. هل هذا اختبار لقدرتي على التحمل؟ هل تحتملين أنت؟ يا الله ما أصعب الانتظار.
عدت مراهقاً، اراقب الساعة، وأنتظر الهاتف، وأنتظر أغنية جميلة، وأنتظرك في شوارع رام الله.
أسير فيها. ربما سأجدك الآن. ربما تسيرين في هذا الشارع. لا ربما في الشارع الذي يليه. ربما أنت الآن في رام الله، لا ربما بعد ساعة أو أقل. ربما تكونين برفقة زوجك، برفقة حماك، أو سلفتك. لا يهم، المهم أن أراك ولو من بعيد. وهل ستجرؤين على محادثتي! ما هذا السؤال السخيف؟ أأجرؤ أنا على محادثتك! أعرف أنك جموح، لا تأبهين بأحد، تقيمين الدنيا ولا يهمك أن تقعد. أنت مثل هؤلاء الذين يسيرون في الشارع وهم يحملون السلاح، ويوزعون بياناً. البيان يبرئ أحد زملائهم، فلماذا يحملون الأسلحة ويوزعون البيان. إنهم يعطون للبيان قوة. إنهم يصنعون سياجاً بالنار والحديد حول زميلهم. إنهم يهددون كل من يتهمه بالقتل. وأنت كذلك، لا تأبهين بأحد. يا الله، من أين لك كل هذه الجرأة التي فقدتها منذ زمن؟ أين كنت يا بنت الذين؟ أنت لبؤة لا تهتمين لأحد. في اللقاء الأخير، قلت: سنتمشى كما يتمشى كل الناس، انظر إلى هؤلاء المحبين، إنهم مثل العصافير، لماذا يكون اللقاء بينهم مسموحاً به، ولا يكون بيننا كذلك؟ إنه مسموح، تعال لنمشي، وليقل القائلون ما يريدون.
يومها ونحن نمشي، اقتربت مني أكثر من المعهود. قلت لها: انتبهي، لا تتهوري. قالت: لا أريد أن أنتبه. وماذا لو تهورت! الكل يتهور، هل تحبني؟
ماذا أجيبها؟ إنها تكثر من هذا السؤال. وأخشى أن يتحول مثل القاء التحية على صديق، أو مارّ في الشارع. أخشى أن لا يصبح للكلمة معنى. وتعود لتقول: أنا أحبك، لو تعرف كم أحبك، هل تحبني؟ فأجيب: كثيراً. وتقول: وكم تساوي هذه الكثير. فأقول: كثير جداً. فتقول: عرفت الكثير، فكم هي جداً؟ فأقول: جداً جداً. فتقول بجدية: شوف، حتى لو لم تكن تحبني، فإني أحبك يا ساكناً قلبي. ثم تحول الكلام إلى ما يشبه المزاح: أنت على فكرة لم تدفع أجرة الشهر الماضي. فأجيبها محاولا الاستغباء: اجرة ماذا؟ فتجيب: يا أهبل، أنت سكنت قلبي منذ شهور دون أن تدفع الأجرة. فأقول: وقبل ذلك، من كان يسكن هناك؟ فتقول: كانت السكنة فارغة، وأبحث عن مستأجر مثلك منذ زمن. فاسأل: ولماذا لم تجدي غيري؟ فتجيب جادة: كنت أبحث عنك أنت، ليس هناك مثلك. على فكرة، أخبرت زوجي بأني وجدت الذي أحبه. سألني: أعرف، إنه أنا. قلت: لا، أنت زوجي. قال بغضب: لا تمزحي في هذه الأمور، وإلا طلقتك. قلت: سأحب غيرك بعدها. قال: لذلك لن أطلقك، حتى لا تحبي بعدها. اقترب مني، أمسك بي من شعري، وقال: أخشى أن تكوني قد أحببت غيري، عندها سأقتلك. قلت: يا مجنون، لو أحببت لن أخبرك.
هل تحبينني فعلاً؟ سألتها عدة مرات، حتى صرت أخشى السؤال فتنفر. أجابتني بوضوح، وبحسم. لا تسأل مثل هذه الأسئلة. ما الدافع لأمرأة مثلي، أن تأتي لرجل لولا أنها تحبه.

- طريقنا مقفول.
- بل معقول.
- أنا لن أتزوجك.
- أنا لن أتزوجك.
- ماذا تريدين اذن؟

- أن أحبك.
- أنت متزوجة.
- الحيوانات تتزوج، لكنها لا تحب.
- ربما تحب، بل إنها تحب، الحمام يحب، ويخلص للزواج.
- يا أهبل: كرهت الحمام، وكرهت كل الطيور المسالمة. كرهت كل الحيوانات الأليفة. كرهت كل الكائنات التي تغمض عيونها. أكره الغزال الذي يدور حول قطيع الأسود، يأكل بحذر، فربما يجوع الأسد ورعيته في أي وقت، وينقض على الغزال. تصور هذه الحياة: يصحو الغزال صباحاً وهو يعرف أنه يجب أن يكون أسرع من أسرع أسد حتى يعيش، لكن اللبؤة تصحو صباحاً، وهي تعرف أنها يجب أن تكون أسرع من أبطأ غزال لتعيش هي وأبناؤها وبعلها. أنا أكره الغزال، لأنه لم يستطع إلا أن يكون فريسة، لكن اللبؤة ما زالت تعيش هي وقطيعها. أنا لبؤة. أسمعت ماذا أقول: أنا لبؤة.
- وأنا ماذا؟
- أنت الأسد.
- إنك تستنزفينني.
- لكني أطعم صغارك.
- أين هم صغاري يا مجنونة؟
- أنا حبلت وولدت كثيراً حين عرفتك.
- كيف؟
- كثر اصدقائي وصديقاتي. أحببتهم جميعاً وأحبوني.
- أنت ترهقينني.
- أعرف أني أحبك وكفى.
- وماذا تفعلين بهذا الحب؟
- ماذا أفعل؟ الحب فعل. الحب هو الفعل الأول، وهو الفعل الأخير.
- فهمت الفعل الأول، لكن كيف يكون الفعل الأخير؟
- إنك تتغابى مرة أخرى، يا أهبل، حين ينتهي الحب، تنتهي الحياة.

مجنون

مالي أقبل منها أن تقول لي كلمات لا أقبلها: في المرة الأولى قالت لي: يبدو أنك نمس، لكنها اكتشفت أني لست كذلك. في المرة الثانية، قالت: أنت مجنون. وقلت لها: مجنونة. وبتنا نتخاطب بهذه العبارة حتى أصبحت ملاصقة لي. في المرة الثالثة، قالت: أنت ساذج في الحب، أنت سنة أولى حب. قلت: نعم، "يا دوب ألامس الحب"، ولكن لماذا ذلك؟ قالت: يا مجنون، إمرأة تأتيك من وراء زوجها، وكل أهل ديرتها، وتكون معك، وتكتفي بمسك يدها؟ قلت: خشيت عليك. قالت: اخش على نفسك. قلت: ماذا تريدين أكثر؟ قالت: أردت أكثر وبس. في المرة الأخيرة، قالت: يا مجنون. قلت: سمعت هذه منك من قبل. قالت: لا، لم تسمعها، المجنون في المرة الأولى، ليست هي نفسها في المرة الثانية، ولا الأخيرة. في كل مرة تحمل هذه الكلمة معنى مختلفاً. سألت: وماذا تحمل هذه المرة من معنى؟ قالت: مجنون.

قالت: أنا أكره الجمعة والسبت والأحد. قلت: لماذا؟ معظم الناس يحبون هذه الأيام بالذات. قالت: الخاملون يحبون هذه الأيام، يحبون الراحة والنوم وفعل لا شيء. أما أنا، فلن أراك فيها. أفهمت يا مجنون؟

مرت أيام، فقلت لها: لقد كرهت هذه الأيام مثلك، وأحببت الأيام الأخرى. قالت: مجنون.

- فهمت الجمعة والأحد، لكن لماذا السبت أيضاً؟
- ألم أقل لك إنك مجنون وأهبل. هذه كلها أعياد أسبوعية سماوية.
- ألا تحبين أعياد الله؟
- ألا ترى أن الأعياد في بلادنا هي أيام للخمول والكسل والنوم وعدم التجوال خارج البيت؟
- وما العيب في الراحة؟
- إن مساحة حركتك محدودة. إنك لا ترى الناس كما في أيام العمل.
- هذا ضروري للإنسان.
- هذا ضروري للخاملين الذين لا يودون أن يروا الحياة ويعيشوها.
- أي منا هو المجنون يا مجنونة؟ أنت المجنونة بنت المجنون، بنت المجنونة، أخت المجنونة، أخت المجنون، من حمولة المجانين. لماذا جئتني؟
- تعيد السؤال مرة أخرى وأخرى، حتى أظنك أهبل، ألا يكفيك أنك مجنون؟
- كيف عرفت أني مجنون، لقد عقلت منذ زمن بعيد، حتى نسيت الجنون.
- بل خبأته. أنا رأيته. اسمع: المرأة ترى ما لا يراه غيرها، إني أرى جنونك في عيونك، أراه في صمتك، في ابتسامتك، في مشيتك، في تقاطيع وجهك.
- أنت ساحرة، كيف رأيت كل ذلك؟
- أقول لك: من بعيد ينفر منك الناس للوهلة الأولى، لكن التدقيق للحظات فقط يرى جنونك. أنا رأيته. ولهذا أحببتك.
- لقد نسيت جنوني، كنت أعيش مثل المجانين، وأود أن أكون عاقلاً.
- دون أن تخبرني ما هي حياتك، أنت مجنون. أنت لست عاقلاً، ولا تود.
- لماذا الجنون يا سامية؟
- لأن الجنون هو الذي يصنع التاريخ، والعقّال يبصمون عليه، ويقطفون ثمره.
- سمعت هذا من قبل، بل أعرفه.

- طبعاً لأن الجنون ما زال يعشعش في دماغك. أنت تحولت من صانع للتاريخ إلى إنسان يحاول أن يبصم على نتائجه، ويقطف ثمره.
- لم أستطع ذلك من قبل.
- ولن تستطيع، لأن ربنا خلقك مجنوناً.

نعم كنت أعيش مجنوناً، ألقيت بالعلاقات الاجتماعية جانباً، وعشت مجنوناً، مع المجانين. شهاب كان مجنوناً، وعشت معه، سليم كان مجنوناً، وصادقته. بهاء كانت مجنونة، وعشت معها. سمية كانت مجنونة، وعشت معها، وسمير، وهاشم، وعلية، و ... نعم أنا كنت مجنوناً. في الانتفاضة الأولى، كنت أحمل البيانات أنا وزوجتي ونوزعها، والجيش ينتشر في كل مكان. كنا نمر من بينهم، أو من فوقهم، وتنزل عليهم البيانات مثل المطر. كان ممنوعاً أن يقتني الواحد جهازا فنياً للطباعة، ووضعته في بيتك. كان ممنوعاً أن تذهب إلى القدس، فكنت تذهب، وتأخذ النسخة الأولى من النداء، ليوزع بعدها في باقي أنحاء الضفة الغربية. كنت تشارك في الرقص وفي الزفة مثل المجنون. كنت قائداً في الدبكة، وفي الغناء الجاد والعبثي بشكل مجنون. ألم يقل عنك رئيس مؤسستك: والله بنشرب كأسه. وشربنا الكؤوس معاً. شاركت في إنشاء ثلاث منظمات حزبية في الكويت، وفي الأردن، وفي فلسطين، ألا يعتبر ذلك جنوناً؟ درت في مخيمات وقرى مدينة رام الله. واجهت الجنود وهم يطلبون منك مسح الشعارات، أو إزالة الحجارة، كأنك مجنون. الجندي نفسه قال لك، يوم أوقفك، وسيارتك مليئة بالنشرات السياسية، قال: واحد مجنون.
أقاربك، حين واجهتهم، قالوا: مجنون. أصدقاؤك قالوا: مجنون. زملاؤك قالوا: مجنون. الجميع قالوا عنك: مجنون. أنت رضيت بهذه الكلمة، واعتبرتها جزءا من شخصيتك. أنت تتهور بسرعة، تصرخ، تصمت، تبكي، تحزن، تنفعل، أنت صفحة مكشوفة. أنت مجنووووووووووووووووووووون.

ساذج

سألتها: كيف تعرفت إليّ.

- كنت أنظر في هذا الاتجاه، وقلت: سأجد الذي أبحث عنه. تطلعت في هذه الجهة، فكنت أمامي، وقلت: هذا هو.
- لكن جنوني كنت قد خبأته، نسيته.
- لا، كان مجرد غبار، يعطيك هيئة العاقل.
- وكيف عرفت أنه مجرد غبار؟
- نفخت عليه، فإذا بحقيقتك أمامي، كما أنت.
- والله أنت تذكرينني بكل النكات المرتبطة بهذه التصرفات.
- أنت مشروع، كان يجب الشغل عليك وأنت في صباك.
- أنا الذي اشتغلت عليه، وعلى تغييره.
- لم تتغير. إنك تخفيه فقط، لو عرفتك منذ زمن، لتغير.
- لماذا لم ألتق بك من قبل؟
- لم نلتق، لكننا التقينا.
- وماذا ستفعلين؟
- سأرجعك إلى طبيعتك الأولى.
- ما هي؟
- ألا يكفيك أنك مجنون؟ وساذج أيضاً؟

بس!

– يا بنت الناس، أنا كبير في السن، وعيب عليّ أن أكون مراهقاً.
– انت مراهق، وهل للمراهقة عمر؟
– لا أدري، لكن يبدو لا. استغربت من أخي وهو يقترب من السبعين، حين قال: أحبها.
– أخوك قلبه حي، وأنت كذلك، لا انتظر منك سماع الكلمات التي أريد، فأنا أقرأها في عينيك، وفي ضحكتك.
– لكنه العمر يا شاطئ؟
– إذا كان العمر مشكلة يا زورق، فهو مشكلة لي، وأنا لا أشعر بأن هناك مشكلة.
– بعدين يا بنت؟
– قلت لك: ما في بعدين.
– وماذا بعد، لو افترضنا أننا أحببنا؟
– هذه هي النتيجة. نحب بعض وبس.
– تظلين تقولين: وبس.
– يعني انتهى، ليس هناك من أسئلة حول هذا الموضوع.

يا الله، ماذا أفعل بها، تريدني أن أعيش الواقع الجميل كما هو وبس. تريدني أن أحبها وبس. تريدني أن أمسك بالقمر والشمس والنجوم، وكل شيء وبس. سألتها: هل تريدين أن أمسك بكل هذه وبس؟

– يا قمري.
– أنت القمر، أنت وكل أهلك.
– قمري.
– تقصدين قمرك، أن أدور حولك.
– أنا الأرض دوماً، وأنت قمري، بشحوبك، بحيويتك، بنصفك، بجزء منك، بكلـــك. أنـــت قمري، وبس.
– هل هناك كلمة أخرى تخاطبينني بها؟
– قمري.
– غيرها؟
– قمري؟
– سألت عن غيرها؟
– جمري.
– يكفيني الكلمة الأولى، ولأكون قمرك، وبس.

في إحدى المرات، ونحن نتمشى، قالت: هل تشعر الآن أن هناك فرقاً في العمر بيننا؟
قلت: لا.
– وأنا كذلك. أنا لست طائشة، أنا لست أبحث عن والدي فيك، ولا عن الحنان، ولا أبحث عن الجنس، أنا أبحث عن الحب، ووجدته فيك.
– والله إنه لجميل أن أسمع مثل هذه الكلمات، لكن!
– ليس هناك لكن، ماذا عن زوجك؟
– لا يعرف سوى العمل، والأكل، والنوم.

- وأنت ماذا تريدين؟
- الحب.
- وهل تجديه عندي؟
- عندك وبس.
- لماذا لم تجدينه عند زوجك وبس؟
- قلت لك بس.
- لماذا ليس عنده؟
- لم يكن مجنوناً في صباه، ولن يكون كذلك في المستقبل.
- وأنا؟
- قلت لك بس.

دير بالك على حالك

اتصلت بي في المرة الأولى، وقالت: دير بالك على حالك. خفت. ماذا تريد أن تقول؟ هل تهددني؟ هل ترى تهديداً لا أراه؟ هل تريد أن توقع بي؟ هل تريد أن تضعني في المصيدة؟ ما هو الدافع لأن تقول هذه الكلمات؟
في المرة الثانية والثالثة وفي كل مرة، قالت: دير بالك على حالك. فقدت وقتها عواطفي، وأصبحت متحفزاً أريد الدفاع عن ذاتي. كيف أدير بالي على حالي! ماذا تخطط هذه المجنونة. صرت جدياً أكثر من اللازم. أمسكت بالهاتف، وسألت بجدية: ماذا يحدث؟ ماذا تقصدين؟ ما هو الشيء الذي أخشاه؟

- لا شيء، فقط أحبك، وأخشى عليك، أريد أن تبقى، أريد أن تظل من أجلي.
- إني هنا، لا شيء حتى الآن، ماذا يحدث؟
- لا شيء. أخشى على نفسي، أخشى عليك.
- مم تخشين؟
- حافظ على نفسك من أجلي، ومن أجلك.
- قولي يا بنت الناس، ما الذي يحدث؟
- احبك، أحبك، أحبك.
- وهل في هذا خشية؟
- كم أحبك.
- كم؟
- بقدر ما أشتاق إليك، أتعرف كم أشتاق إليك؟
- لا.
- بعدد صور الجمال، ونسمات الريح، وحركة أوراق الشجر، وتساقط مياه الأمطار، وعدد الأشعة الصادرة من المنشور، تلك التي نراها وتلك التي لا نراها، ومع كل زقزقة عصفور، وإطلالة صبح، وساعات الليل الطويلة؟
- وهل ساعات الليل طويلة؟
- نعم، والله لولاك، لا أعرف كيف أقضيها.
- لكنك هناك، وأنا هنا.
- من قال لك، إنك هناك. أنت هنا، وهنا، وهنا في القلب.
- سنظل كذلك.
- لكنك ستظل تغمرني بهذا الحب. يلعن ..... كم أحبك.
- رجعنا لنفس المعزوفة.
- هذه هي معزوفة الحياة.
- أتعرفين يا سامية؟ لقد أعدت لي ملكة الكتابة من جديد، إنك تمسكين بيدي، وتجعلينني أكتب، أنا أكتب روايتك الآن.
- أنت فعلت بي بالعكس. أنت منعتني من القراءة والكتابة والحساب والتاريخ والعلوم وكل المواضيع التي درستها. منذ عرفتك، لا أعرف إلا أنت.
- لماذا؟
- كنت أقرأ عن الآخرين، لكني اليوم أقرأ نفسي. وجدتك، فأحدثك.
- لا نتحدث كثيراً.

- حتى لو لم نقل شيئا، إننا نتحدث.
- إلى متى سيطول هذا العذاب؟
- إنه ليس عذاباً، إنه الحياة الحلوة.
- وبعدين؟
- إنه جميل، ونحن نحب هذا الجمال.

ابتسمت، أحسست بالانتعاش، لكني تذكرت "دير بالك على حالك". ارتجفت، انقبضت عضلات وجهي، تصلبت شراييني، وسألتها:

- لم أفهم دير بالك على حالك؟
- ألا يكفيك ما قلته؟
- لا.
- شاهدتك بالأمس أنت وزياد في مقابلة تلفزيونية، وأنتم تتحدثون عن ثقافة المجتمع والشباب.
- وماذا في ذلك؟
- أعجبتني، لكن ذلك ليس كلام المجانين، إنه كلام العقّال.
- وماذا في ذلك؟
- الناس تحب الجنون، تريد قائداً مجنوناً، وليس عاقلاً. بل كنتما أكثر من عاقلين.
- كيف؟
- تتحدثون عن ثقافة السلام، وتلبسون العدو ما لم يلبسه بعد. لن يلبسه.
- ماذا تقصدين؟
- هو لا يريد السلام الآن.
- ماذا يريد؟
- هو مجنون، ولا يقابله إلا الجنون.
- أكنّا عقّالا لهذا الحد.
- كنتما أقرب إلى العقلانية. دير بالك على حالك.
- أتهددينني بجدّ؟
- لا، بل أريد أن لا تلعب دور العقّال. دير بالك على حالك.
- ماذا أفعل؟
- دير بالك على حالك. أحبك.

مهزوم

ذهبت إليها، انتظرت حتى خرجت من عملها، ولاقيتها محاولا أن أعتذر. نظرت إليّ من تحت إلى فوق، وقالت: رغم كل الذي لم يحصل بيننا، فأنا أحبك.

- مدي يديك نحوي، أريد أن أقبلهما.
- شو الفائدة؟ كان بالإمكان أن تفعل أكثر.
- وماذا أفعل؟
- وماذا أفعل أنا؟
- أردت أن أمسد على شعرك، أن أداعبك، أن أشعر بأني قريبة منك.
- أنت قريبة مني.
- وأنا معك، أشعر بأني بعيدة. تشعرني بأني بعيدة، تصدني، تكبح جماحي.
- هل الأسف له معنى؟
- لا، كل شيء انتهى، وليس هناك فرصة أخرى.
- لا بل هناك فرص أخرى. سأفعل كل شيء.
- لم تفعل في السابق، فهل تفعل الآن؟
- نعم أريد الآن.
- لا يوجد إمكانية.
- أنا سأخلقها.

ما لها هذه السيدة! تخاطبني كمهزوم في معركة، خاضت معي المعركة وهزمتني، انتظرت فارساً، فوجدته راجلاً. انتظرت محارباً فوجدته مسالماً. انتظرت حبيباً فوجدته محايداً. انتظرت مجنوناً فوجدته عاقلاً. قلت في نفسي: اسمعي يا بنت الناس: إذا كنت تعتبرين المسألة حرباً فسأخوضها. وإذا كانت الحرب تتطلب أن يكون هناك مهزوم ورابح، فأنا الرابح.
أنا المقاتل دوماً، فكيف انسحب من المعركة، وهي في أوجها. كيف ألقيت بسلاحي بهذه السهولة؟ ماذا كان يجب أن أفعل؟ أنا الذي لا يستسلم، أنا الذي كتبت عن صعود الثقافة، وصعود الإنسانية، وصعود رأس المال، وصعود الاستغلال، وكتبت عن صعود الهاوية. لقد صعد الرجل بعدما سقط في الوحل، بعدما هبط إلى الحضيض، بعد لم يعد شيئاً، قرر أن يعود، أن يصبح كما كان، رجلاً كما غيره، إنساناً كما غيره، مناضلاً، مقاتلاً، صنديداً. يا الله: لا أحب هذه الكلمات الكبيرة، أحب البساطة كما هي وأكثر. لقد نسيت هذه المصطلحات منذ مدة طويلة، منذ 1990، وربما قبلها بقليل، أو بعدها بأربع سنوات، حتى أننا ونحن نراقب برنامجاً تلفزيونياً لقائد قديم وما زال قائداً، نضحك، ونضحك. تتقابل عيوننا، ونضحك، ونقول: هذه الكلمات سمعناها من قبل. لماذا أضطر أن أكون في هذا الموقف؟
قالت: أحبك، الحب ليس فيه رابح وخاسر، الحب فيه رابحان فقط.

- ألا تعتبرينني خاسراً؟
- لم تحسن التصرف، تعطيك المرأة نفسها، ولا تحسن التصرف.
- هل تعتقدين أنه كان بالإمكان؟
- نعم.

رجعت، وأنا أفكر في هذه الكلمات، وأنا أشعر بالهزيمة، وأنا مصمم على الانتصار.
في اليوم التالي، وجدتها تقف على باب موسسة "الأندلس"، تنتظر قدومي. قالت: أحبك.

اقتربت منها، أمسكت بها بذراعي، ورحت أضمها، وفعلت هي كذلك. تنهدت، وأنا تنهدت. ضممتها أكثر، وضعت رأسي على كتفها، وهي فعلت كذلك، وتنهدنا معاً. لحظات، فقط لحظات، فإذا بها تبعدني، وتقول: مجنون.
ابتعدت. أدرت ظهري. صببت قهوة الصباح، وعدت إليها. كانت جالسة هذه المرة على المقعد. اقتربت منها، فإذا بشفتي تلامسان شفتيها، ونصبح واحداً، استطعم الشيء، فامتلكها أكثر. لحظات أخرى قليلة مرت، فإذا بها تبعدني عنها. قالت: هل نتمشى في الخارج؟

- نعم.

وخرجنا، قالت: أنت لا تتيح لي فرصة.

- فرصة ماذا؟
- فرصة أن أحضنك بطريقتي، وأن امتلكك بطريقتي.
- وما هي طريقتك؟
- الأشياء لا تقال، الأشياء تسلكها دون أن تستطيع تعريفها.
- وماذا ستفعلين؟
- حين أفعل تعرف ذلك، سأجعلك ترقص رقصاً، سأقيم الدنيا من حولك، سأريك النجوم وهي تحلق في السماء، وأسمعك صوت حفيف الشجر حين لا يكون هناك نسيم، سأزرع لك الحديقة من جديد، سأسقيك ماء الشاطئ.
- ماء البحر مالح.
- مياه البحر ليست متشابهة، كل شاطئ له خصوصيته، هذا الشاطئ لم تبحر فيه بعد.
- أنا في المياه الدولية.
- المشكلة أنك في المياه الدولية، فلا أستطيع الإمساك بك ومحاكمتك.
- أخاف من الشاطئ.
- إنه شاطئك. لا تظل تعيش بعقول الآخرين. عش حياتك كما هي.
- كيف؟
- اقترب من الشاطئ. يجب أن تعيش هنا.
- وأين أنا الآن؟
- إنك في المياه الدولية كما قلت.
- هل أقترب؟
- الشاطئ في انتظار الزورق.
- الشاطئ واسع، أين سأحط؟
- فقط تابع المسير.
- يعني ظللت مهزوماً في نظرك.

في المرة الثالثة، وجدت نفسي أمسك بها، أضع يدي حولها، ونسبح في لحظات، أعبر الشاطئ، والزورق يهدر.
أبعدتني عنها قليلا. وقالت: امسح شفتيك. أمسكت بماء أمسحهما، فإذا بالماء ساخن، صمتني، كدت أصرخ.

صحوت من النوم، وشفتاي بهما خدر لذيذ. من أين جاء هذا الخدر؟ ألم أكن نائماً؟ نعم، لم كل هذه الأحلام؟ يا الله، لماذا؟ أريد أن أعيش. أحلم بالحب، وأنا في الخمسين، وأحلم في النوم، وفي اليقظة. إلى متى سأظل أحلم؟ جاءني الجواب لا أعرف من أين: ستظل تحلم حتى تموت.

- أموت! صرخت
- تموت في الحياة، وتحيا في الموت.
- أنت مثل الصوفي الحلاج. صعد إلى الله، وفرح بلقائه.
- من قال ذلك؟
- أليس ذلك حراماً يا الله؟
- لا. الحرام أن يكون هناك حرام.
- وما هو الحرام؟
- أن لا تعيش حياتك.
- إني أعيشها، آكل، وأشرب، وأنام.
- الحياة هي أن تحب الحياة.
- إلى متى؟
- إلى الأبد.
- وهل هناك حياة إلى الأبد.
- نعم، الحب هو حياة إلى الأبد.
- ماذا تقول: الحب؟
- نعم، الله محبة. ألم تسمع بذلك.

قالت مرة أخرى: أنت لا تتركني أفعل ما أريد. أنت تهاجمني، تنقض عليّ مثل صورة النسر التي تضعها على حقيبتك. اترك لي فرصة التعبير عن نفسي.

- إنك تقولين كل شيء.
- لم أقل شيئاً بعد.
- وماذا ستقولين؟
- حين أقول تسمعه.
- وماذا لو لم تقولي؟
- أكون وقتها أقول أكثر.
- وهل هناك أكثر؟
- أكثر وأكثر.

لا تدرك عقلي

لن أحدثك يا صديقي كما تدّعي عن ماضيَّ. قلت ما عندي. أتريد أن تعيش في الماضي؟ أنا لا أحب هذا النوع من الحياة. أنا أعيش حاضري، ومستقبلي إن شئت.
ألم تر الكاريكاتير الذي نشرته جريدة القدس يوم كانت القيادة مترددة في استمرار الانتفاضة؟ كان الكاريكاتير مكوناً من جزئين كل منهما فيه مذياع ينطق: الجزء الأول يوم 15 مايو جاء فيه: هنا إذاعة صوت فلسطين، البرنامج الثاني .. والان أعزائي المستمعين نترككم مع مجموعة من الأغاني الوطنية، نبدؤها مع فيروز و "يا قدس". أما الجزء الثاني يوم 16 مايو جاء فيه: والآن أعزائي المستمعين مع مجموعة من الأغاني نبدؤها مع عمرو دياب و "ما بلاش نتكلم في الماضي". أنا لست مترددة، ولن أتكلم في الماضي.
لم يكن أبي مجنوناً أو متهوراً، وأمي عاقلة وهادئة أشد الهدوء. أبي كان مسالماً، وأمي مسالمة. أنا كرهت هذا الهدوء، أحب الحركة، أحب التنقل من مكان إلى آخر، أحب الرقص، أحب الدبكة، أتقنها بشكل جيد. اسمع: هذا لا تعرفه، إذا كان هناك عرس، وبدأت أرقص، فلن تستطيع أية صبية مجاراتي، أنا وبس.
في المدرسة طردتني المدرّسة أكثر من مرة من الصف، لأني لا أستطيع أن أبقى في المقعد كل هذا الوقت. كنت أحب درس الرياضة، لأن فيه انفتاحاً على العالم، يطلق لجسدي حريته، هو يقودني، بينما وأنا في الصف أنا أقوده، وهو يرفض ذلك.
زملائي وزميلاتي ينتقدون مشيتي، يهزأون منها. يقولون إني أترك ليديّ تسبحان في الهواء كما هما، ويقولون بأن رجلي تلعبان مع الأرض ومع الريح. يقولون إن مؤخرتي تكون حرة وهي تتأرجح. هذا الكلام لا يهمني، بل يفرحني، فهم يعرفون شخصيتي من مشيتي. هل هناك أجمل من هذا؟
حين أخبرتني بأنك تشاهد بعض البرامج التي تعدل من مشية الفتيات، وتسوي بشرتهن، وشعرهن، ولباسهن، وكل شيء فيهن. قلت يومها: لو اشتغلوا عليك ستصبحين ملكة جمال بهذا الطول، وهذا القوام. لن أنشغل بمثل هذه الأمور، يكفيني أن ترى جمالي.
أنت من أنصار فيروز وماجدة الرومي اللتين تغنيان بهدوء، وترقصان بهدوء. أنت من أنصار عبادي الجوهر، وعبد الرب إدريس. وأنا من أنصار أصالة وفهد بلان، وسميرة توفيق، وعبدالله بالخير. هذا لا يضيرني. لكن لنرجع لما تقوله عزيزتك ماجدة الرومي، وهي تغني "كن صديقي"، تقول: لماذا تهتم بشكلي ولا تدرك عقلي؟ وتقول: لماذا تنسى حين تلقاني نصف الكلام؟ وتقول: ليس في الأمر انتقاص للرجولة، غير أن الشرقي لا يرضى بدور غير أدوار البطولة. أنت رجل شرقي في النهاية، وأنا امرأة شرقية تعي دورها وتتمرد عليه. أفهمت؟
سأكمل لك بعضاً من حياتي، ليس لأني أريد ذلك، لكن لأنك أنت أردته. منعوا عبور الناس إلى القدس، لكني كنت هناك وقتما أردت. مرات بالموارية على الجنود، ومرات بالهبل، ومرات بالجنون، ومرات بالالتفاف حول الحاجز. ماذا أفعل هناك؟ أتجول، ثم أتجول، أدردش مع صاحب هذا المحل، وبائعة الخضراوات، وصاحب المخبز، والسوّاح، واليهود، والعرب، والأعاجم. أتجول في حديقة الملك، ثم أعود للتجول مرة أخرى حتى تتك رجلاي. أكون وحدي معظم الأحيان، لكن لا بأس إن وجدت رفيقاً. نتحدث، ونغني، ونرقص.
في الجامعة تعرفت إلى مروان الذي تعرف قصته جيداً. أبعدني قليلا عن المجتمع، فهو لم ير ما أراه. تخرجت من الجامعة لأجد أن أهلي يعرضون عليّ الزواج. حاولت الرفض، لكني لم أملك البديل. قررت حينها أن أسافر، وأعيش هناك كما أريد. أتعلم فنون الرقص، لكني لم أملك البديل. انصعت لقرار أهلي وتزوجت دون حفل ودون زفة. تصور! أنا سامية أتزوج بهدوء، بهدوء يا بلال! وجدت أن هذه الحياة الساكنة الخانعة لا تلائمني، لا أستطيع العيش

معها. كلما تصورّت أن حياتي ستطول هكذا ، أصاب بالجنون. انتبه ليس الجنون الجميل، بل الجنون المرض. لا أحب أن أكون مريضة، أنا مجنونة دون مشفى، ولست بحاجة إليه. أما الآن فها أنا أمامك صفحة واضحة بكل سوادها، ومآسيها، وفرحها. ماذا تريد بعد؟
أترى الألوان التي أراها في اللوحة؟

نوّري ونوّرية

كتبت لها، ربما تتفاجئين لو قلت لك إني كنت أقرأ في الأيام الماضية "قصة حب مجوسية". قالت: قرأتها، أعجبتني.

- أتعرفين، أني كنت على وشك أن أكتب قصة حب نورية.
- لماذا؟
- لأني أحببت وأحبتني واحدة نورية.
- عرفت ذلك، لماذا تظل تعيش على الماضي؟ ألم تعرف غير تلك النورية؟
- بل عرفت؟
- حدثني عن غيرها.
- بل سأحدثك عنها غير الذي قلته سابقاً؟
- أنت تعيش مع القصة نفسها معظم وقتك.
- بل أراها من زوايا أخرى.
- هذا ما قالته لك سما في وقت من الأوقات، وبذلك أعجبت بك.
- وسيعجبك أيضاً.
- قل ما تريد.
- كانت مجنونة، كانت تأتيني إلى العمل، وتلاقيني في الشارع، وفي كل مكان، جعلتني مثل النوّر، أبحث عنها في شوارع المدينة، لكنها كانت تبحث عني أكثر، تأتي بزميلاتها وتقول لهن: هذا هو. تأتيني قرب شقتي، وتقف مقابلي، وتقول لأصحاب المحلات التجارية: هذا هو. تأتيني وأنا عند أقاربي، تنشغل بي طوال الوقت. وتقول لهم: هذا هو.
- وبعدين؟
- أنت تسألين هذه المرة بعدين.
- بعدين؟
- طلعت نوّرية.
- كيف؟
- بطلت مجنونة، بحثت عن زوج واستقرار.
- بل ربما صارت مجنونة، فاختارت هذه الطريق، مثلما فعلت أنا حين تزوجت. أنت الذي جننتها. اسمع عندي قصة مماثلة.
- ما هي؟
- لاحقني أستاذ جامعي في يوم من الأيام. كان ينتظرني وأنا داخلة إلى الكلية وأنا خارجة منها. تكرر ذلك كثيراً. كان يحمل حقيبة كتبه، ويلحقني. يلبس نظارات طبية. يلبس بدلة مرتبة وربطة عنق، ويحمل غليوناً في فمه أو يده. لاحظت ذلك، دون أن أقول له شيئاً. لكنه مرة اعترض طريقي، وقال: هل نتعرف؟ قلت له: ماذا تريد؟ قال: هل نلتقي في مكان ما لنتحدث؟ قلت له: في أية مكتبة تريد أن نلتقي؟
- بعدين؟
- ولا قبلين. لم أعد أراه.
- إذن هناك أشياء غير مشتركة بيننا.

- ما هي؟
- أحببت أنا النورية، وأحبك إنسان لانوّري.
- بل هو نوّري.
- هذه الصفات لا تدل على ذلك!
- بل هو نوّري، لأنه فكر أن يرتبط بواحدة مثلي.
- لكنك في النهاية ارتبطت بواحد غير مجنون.
- لا أعرف كيف حدث ذلك. ربما قررت أن أعدّل عن جنوني، لكني لم أستطع. اليوم تأكدت أني كنت مجنونة حين تزوجته.
- وماذا تفعلين الآن؟
- أن أرجع إلى وضعي الطبيعي.
- لماذا؟
- حتى أكون كما أنا.
- مجنونة.

مراهقة

- مر دهر دون أن أراك.
- لم يمر شهر على التعرف بك.
- لو تعرف كيف قضيته.
- كيف؟
- عذاب، وشوق، وحيرة، وارتباك، وحنين، وغناء، ورقص، وألم، وحزن، كان قلبي مغشياً عليه.
- كيف أيقظته؟
- حين رأيتك.
- لكني كنت أراك كل يوم؟
- مجنون، كيف؟
- كنت آتي عندك.
- أين؟
- في بيتك.
- في بيتي؟
- نعم، جئت في اليوم الأول، وقفت على بعد من المنزل، رأيتك من النافذة، وذهبت. وجئت في اليوم الثاني، وقفت في مدخل البناية، كنت تمرين، ولم تنتبهي إلى أني أنا الواقف عند البقالة، أتظاهر بأني أشتري أغراضاً. وفي اليوم الثالث، صعدت الدرج، وقفت أمام شقتك، استرقت السمع، وأنت تغنين، وربما ترقصين. وفي اليوم الرابع، دخلت الشقة. كنت هناك، جلست في الصالة، ورحت أراقبك، وأنت تسرحين وتمرحين، وتكلمين أمك ربما، وتتحدثين مع نفسك كما لو كانت تفهم كلامك.
- مجنون.
- وفي اليوم العشرين، كنت هناك.
- وماذا فعلت؟
- طرت مع الطيور، برزت لي أجنحة فطرت، وتلاشيت مع ذرات الهواء، واختلطت بالغيوم، اختبأت فيها.
- وبعدين؟
- بعد المساء، بدأت الغيوم تتكاثر، فتكاثرت معها، وبدأت تثقل، فثقلت معها. نزل المطر، فنزلت معه.
- وبعدين؟
- ألم تسمعي صوت ارتطام حبات المطر بزجاج النافذة؟
- أية نافذة؟
- النافذة التي وقفت خلفها.
- نعم، فعلت ذلك. أين كنت؟
- كنت أنا تلك الحبات التي دقت زجاج غرفتك.
- أتعرف؟ كم كان شعوري حسناً حين رأيتك.
- أين رأيتني؟
- صار جسدي خدراً، لمست الحبات من وراء الزجاج، ورحت أتابعها بأصابعي.

- شعرت بذلك.
- كانت الحبات رشيقة في تقافزها، وكانت السماء، وكانت النجوم قد اختفت.
- وبعدين؟
- أحسست بكل ما لم أحس به منذ مدة.
- ما هو؟
- لا أعرف، لن أستطيع وصفه.
- ماذا كان لون حبات المطر؟
- كانت تارة زرقاء باهتة، وأحياناً بألوان لم أعرفها.
- كيف لم تعرفي ألوانها؟ رجعت لقصتك مع مروان.
- نعم رأيت الألوان التي لا يراها غيري.
- كيف كانت؟
- أحياناً مزهرة، وأحياناً يانعة.
- كيف تكون يانعة؟
- مثل النعناع، مثل لون أوراق النعناع وهي تعود من جديد.
- وأين كانت قبل ذلك؟
- لم تكن قبل ذلك. كانت هناك مثلها.
- وهل هناك مثلها؟
- ليس مثلها شيء، إنها لا تشبه أحداً.
- هذا ما قلته لزياد مرة من المرات.
- مجنونة.
- مجنون.
- هل نبتعد مرة أخرى؟
- لنلتقي.
- وبعدين؟
- نبتعد.
- ونلتقي.
- أكيد.
- لم نتحدث مثل الشعراء؟
- هم يتحدثون مثلنا.
- ماذا تقولين؟
- إنهم يتقمصون حالتنا، فيكتبون عنها.
- وماذا نفعل نحن؟
- نعيش حياتنا.
- لماذا نتعذب؟
- حتى نعيش.
- ماذا نفعل بهذه الحياة؟
- نحبها.
- لماذا قدر لنا أن نعيش هكذا؟
- لأننا نريد أن نعيش.

- أنت تبسّطين الأمور حين تكون معقدة، وتعقدينها حين تكون بسيطة.
- والله لأجعلنك لا تستقر على حال، سأجعلك مجنوناً رسمياً.
- وهل هناك جنون رسمي؟
- نعم، أنت، لكن دون شهادة.
- وأنت؟
- أنا مجنونة برخصة.
- ألا تملين من هذا الحوار؟
- لا أمل ولا أنت.
- ألا يتوقف الكلام بيننا؟
- أتحسبنا صغاراً؟
- ماذا يعني صغاراً؟
- مثل العصافير التي نراها على طرف الشارع، مثل المراهقين.
- ماذا يفعلون؟
- لا شيء. يتحدثون قليلاً، ثم يظلّون يتفحصون وجوه بعضهم بعضاً، ليكتشفوا الجديد.
- وما هو الفرق بيننا؟
- أننا نخبر الحياة، جئناها بوعي، ندركها، ونعيد صياغتها.
- بأية لغة؟
- لا يهم، دائما هناك لغة.
- ألا تكفين عن تحريك شفاهك بهذا الجنون؟
- لا أستطيع، هما اللتان تحركانني.
- هما يحركانني أيضاً، أوقفيهما من أجل الله.
- لن يتوقفا من أجلك.
- أنا بشر يا بنت.
- وأنا بشر يا صبي.
- يا الله.
- يا زورق.
- يا شاطئ.
- يا مجنون.

صلاة

- كيف أنت الآن؟
- لا أستطيع وصف حالتي.
- لماذا؟
- لأنني لم أكن بمثل هذا الفرح.
- لماذا تفرحين؟
- لأني عرفتك.
- وماذا عرفت فيّ؟
- اسمع، أحبتتك، وأحبتت أسمك، وأحببت أهالي بلدتك، وأحببت الجبل الذي تتعبد عليه.
- لكنك لم تريه.
- سأراه برفقتك. رأيته من بعيد. أكاد أصدق نفسي أني رأيته. هو جبل بهي. إنه مثلك.
- من أين عرفت ذلك؟
- من عينيك.
- وماذا في عيني؟
- فيهما كل شيء، فيهما الله، وفيهما غيث، ومطر، وبرق، ورعد، وهطول.
- أتعرفين أن الجبل يتبارك به المرضى؟
- لهذا سأذهب إليه. أنا مريضة بك. أريد علاجاً.
- يبدو أن مرضك مستعص، ولا علاج له.
- النبي سيشفيني.
- كيف يمكن شفاؤك؟
- أذهب إليه، أجلس في حضرته، وأشعر بالراحة النفسية حتى لو مت بعدها بدقائق.
- لن تموتي، بل ستحيين.
- ولهذا سأذهب هناك.
- ألا تعرفين أن قبره قد نبش من أناس كانوا يبحثون عن الذهب؟
- هؤلاء هبل، الذهب لا يوجد تحت الأرض، بل فوقها. الذهب هم الناس. أنت الذهب.
- يا متيمة، أنت الذهب، وأنت الفضة، وأنت الماس، وأنت ثروات الدنيا كلها.
- ألهذه الدرجة تحبني؟
- لهذه الدرجة أراك.
- لماذا لم تبحث عني؟
- ظننتك تحت الأرض، وأنا لا أطيق الحفر، أحب ما فوقها. أحب الشجر، أحب النسيم، أحب الحياة.
- هذا يعني أنك لم تبحث عني.
- بصراحة، لم أفعل.
- وحين فعلت أنا؟
- كنت نائماً فأيقظتني، كنت مغشياً عليه، فأنعشت حياتي.
- أنت تتهرب أن تقول "أحبك".
- لو قلتها ألف مرة، لا ينفع، أخشى عليك أنا الآخر.

- مم تخشى؟
- أخشى أن تكوني سحابة صيف وتنتهي. أخشى أن تكوني مثل مطر أيار، تعــرف أنــه المطر الأخير.
- اذن تحبني. أليس كذلك؟
- ماذا تقولين أنت؟
- يا قمري.
- لو طلعنا على الجبل، لاقتربنا من القمر.
- لن أذهب هناك من أجل أن أبحث عن القمر، فأنا وجدته، لكني أحب الجبل، حدثني عنه.
- يشبه الشيخ الذي يلف رأسه بغطاء أخضر، لم يمسسه أحد. الأشجار واقفة هناك، تغطي كل من يذهب إليه، تداعبه صيفا وشتاء.
- هل نكون هناك، فلا يرانا أحد؟
- نعم. لن يرانا أحد.
- وماذا سنفعل حينها؟
- سنندمج مع الأشجار، سنندمج مع الهواء، وسنتلصص على القرى المجاورة.
- لماذا نتلصص عليها. دعها في حالها، ودعنا في حالنا.
- هل ستصلّين هناك؟
- سأصلّي بطريقتي.
- وما هي طريقتك؟
- ستعرفها في حينها.
- هل ستحضنينني؟
- أنا أفعل ذلك كل يوم، فوق الجبل وفي الوادي، وفي الأزقة، وفي النهار وفي الليل. أنــا لن انتظر منك موافقة حين أفعل ذلك.
- أتغتصبينني؟
- لا، أفعل ذلك برضاك، أحاول أن أزيل غشاوة الخجل التي تغطيك.
- أنت ما زلت طفلة.
- ومريضة.
- اذن اذهبي لتعالجك سما.
- هي بحاجة إلى من يعالجها.
- أنت!
- بل أنت الذي زدت في مرضها.
- عيب.
- ألم أقل لك أحب خجلك؟

إنساني

- أنا أحب السكون.
- أنا أحب الحياة.
- أنا أحب الهدوء.
- أنا أحب الحياة.
- أنا أحب الحياة.

رحت أشرح لها كيف أحب الهدوء، قلت: أجمل الرقص هو تلك الحركات الهادئة التي تكاد تحرك فيها جسدك، وأجمل الموسيقى هي تلك التي تسمعها فلا تربك سمعك، وأجمل ..

- لا تكمل، "شو بتقول يا زلمة"؟
- ألم تري فيروز وهي ترقص، إنها ترقص برأسها، بعينيها، بشعرها، وبحركات خفيفة من جسدها.

تطلعت فيّ وهي تحاول التقاط ما أود قوله، فرحت لما قلته، فرحت أعيده. فأكملت:

- ألم تري ماجدة الرومي وهي ترقص، ترفع يدها فوق رأسها، وبحركات بسيطة، متناسقة، من جسدها، ترقص. أنا أحب هذا النوع من الرقص.

تطلعت فيّ مرة أخرى، وكأنها تريد سماع المزيد. فأكملت:

- وأجمل الحياة هي تلك التي ليس فيها حركات زائدة.

نفرت مني، وقالت: وكيف يكون ذلك؟ إنها الحياة.

- لكنها تصبح أقرب إلى الحياة الحيوانية، ما هو الفرق بين الحيوان والإنسان؟
- في هذه ليس هناك فرق. عندها لا تعرف لا الفول ولا الحمص، تريد أن تأكل بشراهة.
- ولكن كيف نفعل ذلك هكذا، ونحن ننتمي إلى الإنسان؟
- إنها حركة الحياة. إنها موسيقى الحياة، إنها رقصة الحياة.
- لا، من الممكن أن نحولها إلى علاقة إنسانية.
- يا زلمة، حين نود ذلك، حين نجوع، لا يهم في أي مطعم أنت، تريد أن تشبع هذه المعدة، وانتهى.
- لا لم ينته بعد، الحياة لها أكثر من وجه.
- أترى بندول الساعة، وهو يروح ويجيء؟ نحن نمشي مع الزمن مثله.
- هناك فرق بين بندول وبندول.
- إنك تفلسف الأمور. أنا أحب الحياة بالطريقة التي أحبها.
- وهل جربت الحياة بالطريقة التي أقولها لك؟
- لا أريد أن أجربها، إنها ليست حياة.
- هذه هي الحياة التي أبحث عنها.

صمتت قليلا، وقبل أن تذهب، قلت لها: لا تتسرعي، ربما هناك وجهة نظر بحاجة لأن تدرسيها، لأن تعرفيها.

- وماذا لو لم أعرفها؟
- لو تعرفينها أفضل.

- هل فيها حياة؟
- نعم.
- وهل فيها متعة؟
- أكثر مما تتصورين.
- ألهذا الحد أنت واثق مما تقول؟
- نعم.
- ما هو الفرق؟
- يصبح فيه الواحد إنساناً.
- وهل في هذه العلاقة ما هو إنساني؟
- نعم.

تطلعت فيّ مرة أخرى، رقصت عينيها وشفتيها، ومالت بجسدها، مستغربة مما قلت، وقالت: ربما.

كذب

- هل هي كذبة نيسان؟ هل هي كذبة السنة؟ لماذا تكذبين عليّ؟

كنت على أمل أن تتصل بالأمس، بل توقعت أن تفعل ذلك. قلت في نفسي: ستتصل في ذكرى يوم الأرض، وستخبرني بأنها على الجبل، تزرع، تقلع، تغني، ترقص، تفعل أي شيء. المهم إنها هناك على الجبل أو في الوادي. انتظرت طويلاً. هيأت نفسي لأكون على قدر الطلب، أن أكون جاهزاً. أنهيت واجباتي بسرعة قياسية، وانتظرت، ولم تأتِ. في نهاية النهار، وحين فقدت الأمل، ذهبت إلى بائع الورود والأعشاب، فاشتريت شيئا، وعدت. وها قد انتهى يوم آخر.

أما هذا اليوم بالذات، الأول من نيسان، وفي الصباح الباكر، وحين لم أنه لقائي الأول مع وفد من جنوب افريقيا، فإذا بالهاتف يرن. وإذا به رقمها. حملت الهاتف، وانزويت بعيداً حتى لا يسمعني أحد. قالت: اشتقتلك.

- وأنا كذلك.
- هل ستذهب إلى رام الله؟
- أنا في رام الله.
- ماذا تفعل الآن؟
- التقي بوفد اجنبي.
- متى ستنهي ذلك؟
- حوالي الثانية عشرة.
- حين تنهي اتصل بي.

وغاب الصوت، انقطع، صوت دافئ جاءني من بعيد. صوت فيه حنان، فيه موسيقى، وفيه غنج، وجذب، وكل شيء يخطر على البال.

أكملت الحديث معها: متى ستخرجين؟ أين أنت؟ لا أسمع صوتاً! هل أنت على الهاتف؟ لكن الهاتف كان قد انقطع، وغاب الصوت.

عدت إلى الوفد، اكملت منسقتهم الحديث عن تجربتهم هناك، عن الألم الذي عانوه قبل أن يقرروا أن يقبلوا بدولة واحدة لكل سكان دولتهم، عن المصاعب التي يعانونها من التمييز حتى بعد إقامة دولتهم لكل الشعب، عن الأمراض النفسية والصحية والاقتصادية والاجتماعية، وعن تصميمهم على المساواة. حققوا ذلك على مستوى القوانين، من فوق، وظل عليهم أن يحققوه من تحت، فتذكرت ما قالته ساما. سألت المنسقة: كيف قبلتم نفسياً أن يعيش محتل معكم وتعيشون معه؟

- قبلنا. لا حل غيره.
- وكيف قبلوا أن يتساووا مع أهالي الدولة الأصليين؟
- قبلوا، لا حل غيره.
- وكيف يمكن أن تكونوا مستقبلاً.
- سنكون، لا حل غيره.

انشغلت طوال الوقت مع الوفد، تناولنا الغداء معاً في مطعم طبش في قرية جفنا.

اقترحت منسقة الوفد أن نوجه نشاطاتنا نحو المساواة أكثر من الاستقلال القومي. فهذا أكثر جدوى. قالت: في النهاية لن تحصلوا على شيء إذا ظللتم تسلكون هذا الطريق.

وددت لو تكون معي سامية. استأذنت منهم، واتصلت بها. أخبرتها بـــأمر الوفـــد، وأخبرتهـــا باختصار بأهم طروحاتهم. قالت: زوجي سيصل حالاً، وسأحاول أن آتي. رجوتها أن لا تأتي. نصف ساعة فإذا بها أمامي.

ظلت تستمع وتستمع. أومأت لها أن هؤلاء مجانين.
قالت: أنت المجنون. هؤلاء هم العقلاء. سأكون مثلهم.

- وماذا بعد؟
- وسأتعلم منهم. ألا ترى جمالهم؟
- أين هو؟
- في كل شيء. في أشكالهم، وفي حديثهم، وفي تفكيرهم، وفي الألوان التي تراها، وتلـــك التي لا تراها.
- ماذا ترين؟
- أرى كل شيء.
- أنت وقحة.
- أنت لا تعرف الحياة.

هزتني رئيسة الوفد، وكنت سارحاً. قالت: أنت تهذي. ما بك؟

- لا شيء.
- بل تكلم نفسك.
- اين هي سامية؟
- من هي سامية؟
- كانت هنا.
- أنت لم تكن هنا.

سألت رئيسة الوفد أن تدعم "الأندلس" باطلاق صفحة الكترونية تتحدث عن موضوع المساواة، خلف الجدار وأمامه. سعدت بهذا الاقتراح، وقالت: سندرس ذلك مع المؤسسات الأخرى التي تدعمنا مالياً، لكن فكر في الأمر جيداً. وسألت: أأنتم متمسكون بهذا الاسم؟

- لا، لكنه جزء من تاريخنا.
- ماذا لو سميتموها "مانديلا"؟
- هناك مؤسسات أخرى تحمل هذا الاسم.
- ماذا لو سميتموها "تلسون"؟
- سيتعامل الآخرون على أن الاسم غريب عن ثقافتنا.
- اذن ما هي الاسماء المقترحة التي تؤدي نفس الغرض؟ مساواة مثلاً؟
- لم يبق اسم يخطر على بالك إلا باسمه مؤسسة.
- وماذا تفعل كل هذه المؤسسات؟
- كما نفعل نحن.
- إننا نتناول الغداء.
- وهم كذلك.

صمتت برهة، وقالت: أتمنى أن أتزوج بفلسطيني.

- لماذا؟ عندنا نسبة عالية من العنوسة رغم أن ديننا يسمح بحل هذه المشكلة.
- يبدو أنكم لا تعرفون التعامل: لا مع الدين، ولا مع المجتمع، ولا مع السياسة.
- ماذا نفعل؟
- تستثمرون كل إيجابيات ما تسمح به ثقافتكم.
- مثل ماذا؟
- مثل الأعياد وهذه الطبيعة الجميلة؟ لم اشعر أن هناك مظاهر للعيد قبل أسبوع. لـــم أر الناس وهم يخرجون إلى الجبال والطبيعة.
- نحن نقضي الأعياد في البيوت.
- أنتم مجانين.
- ونهتف بأعلى أصواتنا في جنازات الشهداء.
- نحن نتظاهر بالرقص والركض.
- وماذا ستفعلين لو تزوجت من فلسطيني؟
- سأنقل خبرتنا في إقامة دولة المساواة.

الجبل

سامية
أنا أحب الجبل. أحب صعوده والبقاء على قمته أطول فترة ممكنة. أحب جبل النبي غيث الساحر. رأيته في الشتاء، خشيت أن أصعده وقتها. خفت من الرياح والأمطار والثلوج. خشيت أن يلفحني الهواء. رغم إيماني بأني سأصبح أكثر صحة وقوة واندفاعا، لكني في النهاية اكتفيت برؤيته، والامساك بيده، وكنت أمر كل فترة من هناك، أكتفي برؤيته، أتعرف على عظمته، وهذه الأشجار الساحرة التي تعلوه، وهذه الحركة في سكونه. إنه ليس ساكناً، بل يجذب كل من ينظر إليه، كل من يعرف أن هناك جبلاً. وهل غير الجبال يشكل متعة للناظر وأنا من الناظرين.
أحب كل الذين يحبونه، وأحب الجبال لأجله، وأحب الأنبياء لأجل النبي غيث، والمطر لأنه يحمل الغيث. أتعرفين من أين يأتي الغيث! يأتي من فوق الجبل. تتشكل السحب هناك. تتجمع جزيئات بخار الماء هناك، ويسقط المطر من هناك.

قمته أشبه بقصة شعر، اختارها هو، لتظل شاهدة على أن النبي غيث لم يمت. أما البيوت على جانبه، فهي ليست بشيء. ذهب الناس، عاش الناس، مات الناس، وبقي النبي غيث هناك.

تعرفت إلى سما. ظللت أحدثها عن الجبل. كانت تستمع، وتعدني بأن نلتقي هناك، لكنها لم تذهب، ولا أظنها ستصعد إلى قمته.

تعرفت إلى ساما، أخبرتني بقصة ولادتها. قالت: هناك على أعالي هذا الجبل ولدت. اعتقدت أنها تمزح. سألتها: وكيف تعرفين ذلك، والإنسان لا يعرف كيفية تشكيله، ولا يعرف أين هو سقوط راسه؟ قالت: إنني مثل حنا مينا، يبحث عن التشكيل الأول. سألت أمي قبل أن تموت: كيف كان ذلك؟ قالت: هناك استوت الطبخة، وهناك تذوقنا طعمك. هذه المرأة جاءتني في يوم ما، وقالت: أشعر أننا يمكن أن نكون أصدقاء، نتحدث، نناقش أمور حياتنا، ونجعل للحياة طعما، وظلت صديقة لي، لكنها لم تصعد معي الجبل إلا مرة واحدة، وظلت تعدني ولم تذهب. يبدو أنها تبحث عن لحظة تكوينها وحدها. لها ذلك.

حين تعرفت إليك، وحدثتك عن الجبل، وجدتك قد ذهبت هناك والتقطت صوراً له. كنت تنتظرينني أن آتي، ولم أذهب لألتقيك.

أنا أحب الجبل، وأنتظر أن أذهب والذين أحبهم إلى هناك، بل أحب الناس بعد أن يعرفوا الجبل ويصعدوه. يقفون على قمته، ويعيشون لحظات تأمل في ذاتهم.

قرأت على صفحة الكترونية خاصة بمنظمة في جنوب افريقيا مقولة "لا تكن كقمة الجبل، ترى الناس صغارا، ويراها الناس صغيرة". قمة هذا الجبل ليست صغيرة، ولا ترى الناس صغارا. بمجرد أن تكون على قمة هذا الجبل ترى الناس بشراً، أو لا تراهم إن شئت. بمجرد أن تكون بعيداً، ترى الجبل كبيراً، وتراه أعظم مما تراه وأنت هناك. الجبل سيبقى، مثلما الحياة.

دردشة

zawraq
حياتك ثرية يا سامية، أنت كبرت قبل الآوان. هذه هي مشكلتك
shatty
أنا بعمر الورد، لكني أخبر الحياة مثل عجوز
zawraq
بتعرفي يا سامية أني لم أكن أفهم الستات جيداً. كنت أعتقد أنهن يـــردن الجـــنس، وحـــين تعرفت على نساء، كن يطلبن مني صداقة، كن بحاجة لواحد يحس بهن، وحـــين تعرفـــت إليك، اكتشفت الأمر نفسه. المرأة بحاجة لواحد يحبها، وتحبه
shatty
إنها المعجزة. لو عرف الرجل المرأة، لسعد العالم بأسره
zawraq
لم أكن أنتبه للأغاني العاطفية، لكني اليوم أجد معناها. حتى أغاني أليسا ونانسي لها معنى.
shatty
حبيبي، نحن لا نستطيع أن نعيش دون حب. الحب هو الحياة
zawraq
لقد كلفني جهداً كبيراً أن أقنع أصحابي أن محمد منير (في الثمانينيات) يغني للناس، للحب، للحياة
shatty
حتى الحيوانات المفترسة تحب، انا احب اغاني محمد منير، النوبي الأسمر
zawraq
بتسمحيلي بهالرقصة على أغنية "في عشق البنات"؟
shatty
سمحتلك
zawraq
ليش بترقصي بسرعة؟ حسي باللحن، وارقصي بهدوء
shatty
ليش خبطت على رجلي؟
zawraq
حركي أكتافك مليح، وهزي رقبتك مع اللحن
shatty
أنت ما بتعرفني لسه، ممكن تفكرني عاصفة
zawraq
لفي بهدوء
shatty
لم يخلق الله أكثر رومانسية مني، لا تهزأ من رقصي. أنا رومانسية من داخلي
zawraq
أنا أعرف رومانسيتك، لكن على مهلك عليّ في الرقص، يجب أن نرقص لأطـــول فتـــرة ممكنة. لا ترهقي نفسك. سامية: ربما لا تعرفين أنك تملكين جسداً جميلاً جـــداً، وروحـــاً جميلة جداً
shatty

لا تكن جاداً أثناء الرقص، كن كما أنت

zawraq

سامية، أنا تعرفت عليك في الوقت الخطأ. لو تعرفت عليك سابقاً لكنا شيئا آخر، السؤال المهم بالنسبة لي الآن، كيف نكون شيئاً آخر؟

shatty

أن نكون شيئا مختلفا، هو شيء مرهون فينا، أن أحبك بعقلانية وجنون هذا شيء آخر، ربما لو كنا تزوجنا لأحببنا بعضنا أكثر وأكثر، وحلمنا وحققنا أشياء كثيرة جداً، لكن نحن الآن أكثر حباً، لأننا لا نملك أجسادنا ولا أحلامنا. حبنا الآن أكثر جمالاً ولدينا حلم نعيش لتحقيقه. إننا نحلم كيف نكون معا، وهذا بحد ذاته تميز. الكثير من الناس يفتقرون إلى هذه الأحلام والمشاعر، أحبك لا أكثر

zawraq

سامية، أنت تحتلين مكانا في نفسي. إننا لا نبحث عن أجسادنا، حفاظاً على أنفسنا، ولا نبحث أيضاً عن طلاق ما نمتلكه، نعيش حياة أخرى، بل نبحث عن مشاعر تلهبنا، لنعيش حياتنا بمتعة أكثر. يكفيني أني أعرفك، وأراك كل يوم، ونتحدث ولو قليلا.

إلى أين تسير السفن يا سامية؟ أنت قبطان تسيرين السفينة، أنت امرأة عظيمة مليئة بالحيوية وبالنشاط، والعالم الذي حولك ليس على مقاسك. كما قلت: ترين فيه الجبن مرة والشجاعة مرة، اليأس مرة والاندفاع مرة

shatty

الذي يعز علي ويقهرني أن الناس تشتهي أن تكون مثلي بتفكيري وتصرفاتي، لكنها تتمنع وتظهر عكس ذلك

***

zawraq

الكل يتحدث عن الجنون، ولكنه في لحظات أخرى يبدو عقلانيا جداً. في أول يوم تحدثنا، رحت إلى زياد. سألته: مرة قلت لي أن صبية أحبتك، كيف تصرفت معها؟ قال: أول شيء عملته قلت لزوجتي. لكن حين التقاك، مدحك أشد المديح، سامية أنت تتعذبين، وأنا أشعر بعذابك، و أجد نفسي عاجزاً، ما رأيك أن نكون أصدقاء، وبذلك تخرجين من هذا العذاب؟

shatty

وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟

zawraq

لا يستطيع أحد أن يذبحك أو يسلخك. أنت قوية جداً، وأنت لا تستطيعين مواجهة الواقع رغم جنونك. ماذا ستفعلين مثلاً عندما طلب منك زوجك أن لا تفعلي كذا وكذا؟

ستجدينني أسمعك، وتسمعينني، ونتحدث في الحياة، وفي الفرح، وتخرجين من هذا العذاب. تخرجين من الغيرة ومن حق الامتلاك، ومن المجتمع المتخلف، الذي ستواجهينه بالصداقة. ألم تسمعي ماجدة الرومي "كن صديقي"؟ الحب مقابله الكره، لكن الصداقة لا يقابلها شيء، فالصداقة ممكن أن تفتح على كل الأمور. يا سامية: لا أريد أن تتعذبي الآن أو فيما بعد

shatty

أنت لم تحبني يوماً، عندما تحب يستحيل أن يتحول حبك إلى مجرد صداقة، أحببتك من كل قلبي. أحببتك كما لم أحب، أحببتك مرارا وتكراراً. لا أحب الصداقة يا بلال، الصداقة عديمة الجدوى في هذه الأيام، لا صديق هذه الايام

zawraq

أنا صديقك. ثقي بصداقتي

shatty

إن لم نكن أحباء، فلن تكون هناك علاقة تربطني بك. لست بالتفاهة إلـــى هـــذه الدرجـــة. لا أستطيع استيعاب أنك رفضت حبي، أنت أفضل من يرى القلب والأضلع يا بلال، لا أريد منك شيئاً. سوف يظل حبي في قلبي، ليس من حقك ولا من حق أي بشر أن يعتدي على قلبي

zawraq

سامية، لا أتصور أنه يمكنني العيش دونك، لكن ربما الصداقة أجمل، وأكثـــر تبريـــراً أمـــام الآخرين.

shatty

لأول مرة أكتشف اني وضيعة لهذه الدرجة، أستجدي الحب. يا الله كم أحس بخيبة الأمل. لا أريد منك اي شيء، فليذهب قلبي إلى الجحيم

zawraq

أنت لست وضيعة على الإطلاق. أنت امرأة عظيمة، عندك طاقة كبيرة. عندك ثقة بنفســـك، عندك ثقافة. أنت يمكن أن تصبحي قائدة في يوم ما. كل هذا احترمه، وما أقوله لك يعبر عن اعتزازي بك، لكنك يا سامية متوترة أشد التوتر، تؤثر فيك أقل كلمة، وأنا أطمح أن تكـــوني أكثر ثقة بنفسك، وبتوجهاتك، ولهذا رأيت أن أركز على هذا الجانب في هـــذه الفتـــرة. أنـــا أتعذب، لا أريد أن أراك متشنجة، واعتقدت أني أنا سبب في تشنجك، لهذا رأيت أن نبدأ بشكل جديد. توترك يوترني، وعذابك يعذبني، وغيرتك تذبحني، أنا الآخر إنسان

shatty

لست تتعذب على الإطلاق. أنت رجل كباقي الرجال. أرضيت غرورك بحبي لك وبعد تأكدك تريد الانسحاب بطريقة دبلوماسية. أنا متوترة، أنا بدون عقل، أنا لا أفهم. هذا أمر يخصـــني وحدي . إذهب. أنت لا تهمني في شيء

***

zawraq

ما رأيك، أن نترك لكلينا فترة لنفكر أكثر، بدل أن نكيل الاتهامات؟ ألا ترين أن في ردك مـــا يفصح عن توتر

shatty

ردي يفصح عن مدى كرهي لك. لا أريد وقتا للتفكير، ما يجمعني بك مات

zawraq

سأظل احترمك، وأذكرك

shatty

لا أريد منك احتراماً. مثلك لا يحترم نفسه حتى يحترم الآخرين، متردد كما الأطفال

zawraq

ألم أقل لك إنك متوترة؟ ألم أقل لك إن الحب يوازيه الكره؟ شكرا على هذه الكلمات، وهذا لن يغير من احترامي لك

shatty

لعنة الله علي وعلى حبي لك

zawraq

الليل يأتي كل يوم، كما النهار. لا أحب أن تكوني منزعجة إلى هذا الحد. لن تستطيعي أن تنزعي نفسك، وأن تنتزعي من هذه الحياة. قلت سلنتقي في نهار ما، وسنعرف معنى الحياة الفرحة بشكل أكثر ثقة واستقرارا. آمل أن نلتقي، وسأظل أعرف سامية بحيويتها، وبنشاطها، ووهجها المتوقد. لا أحمل في نفسي سوى سامية التي أعرفها من قبل، وليست تلك التي سمعتها مؤخراً. البيت حين ينهدم، يعاد بناؤه بشكل أفضل، وأكثر عصرية، وأكثر جاذبية. أنا

أعرف سامية، التي فرحتني، وأضحكتني، وأبكتني، ولاحقتني بخيالها، وأعرف أن هذه الروح السامية ستبقى مشتعلة لتبني، فهي تحب البناء، وتحب العالم، وتبقى شعلة بين الآخرين

shatty

أنا فكرت كثيراً وتعذبت كثيرا، لذا سوف أجن بحبك وحدي، لي ولنفسي. إن حرمك المجاورون حبي فلن يحرمني احد لأنك معي دائما، تسكنني فلا مهرب منك. لازمتني في مناماتي. كنت معي هناك في هدئة الكرى، الموسيقى التي اهديتنيها دائما في اذني وعلى جهازي، لا أريد منك سوى الاهتمام بنفسك

zawraq

أنت أدرت ظهرك لي، حتى وأنت تفكرين. كرهتيني، وأنا قلت لك ألف مرة: أنا على الأقل احترمك

shatty

يعلم الله الحرب التي خضتها مع قلبي. بلال لا أريد منك شيئا، لكن صعب جداً علي حبك، صعب. والله العظيم لقد نقص وزني أكثر من اللواتي في برنامج الرابح الأكبر، لكني أنا الخاسرة هذه المرة. أنت ما زلت تعيش في ماضي العمل السري، والمطاردات، وخوف الاعتقال. أنا لا أحب أن أعيش في الماضي

zawraq

أنا أحترمك

shatty

بس

اعتذار

بلال: يا أنا بقهري وعجزي وحزني. إمبارح ما هنالي عيش أبداً. أقصى ما كنت أخشاه أن أسبب لك أي حزن. أعذرني فحبي صعب. حاولت مراراً وتكراراً أن أحجم نفسي عنك. لكنها تذهب إليك وكأنها خلقت منك ولك. لا أرى نفسي أبداً دونك. سألت نفسي كثيراً: هل أستطيع؟ لكنها تزيد ضغطها علي وتقول: وابلالاه. بلال أنت بكل ما تفكر فيه وتحبه رائع، لكني لن أنتظرك ولن أربط حياتي بحياتك. أنت مجرد إنسان تملك أفكارا تخونها. أنت تخون نفسك، وسأتعامل معك على هذا الأساس.

انتهيت

ضاق بي السرير. لم يعد النهار يكفيني، فاستلبت من الليل ساعات أخرى. عاد الهدوء إلى منزلي، فلا ضحكة، ولا دمعة، ولا بكاء، ولا صراخ. البيت هادئ كأنه القبر. هجرت عملي، فلم يعد للعمل معنى، ولم يعد لضجيج الناس معنى، ولم تعد لصرخات زوجي وأهلي أي معنى.

أنا السمراء النحيلة، يتغزل بها الناس عن بعد، وحين يقتربون يبتعدون ثانية. يعجبون بي من بعيد، لكنهم لن يكونوا جزءا من حياتي، وأنا لن أكون جزءا منهم.

دققت في جدران غرفتي، فوجدتها كلها متشابهة، ألوانها قاتمة. رأيت ألواناً أخرى. لا أظن أنك رأيتها، ولا أعرف أنك ستراها في يوم ما.

جهاز الحاسوب كرهته، فكل ما فيه أصبح عادياً. لم تعد قطرات المطر تثير في شيئاً، ولم يعد للربيع رائحة. أنت تنطفئ مع نهاية الشتاء، وأنا أنطفأت تماماً. أنت الذي أطفأ ناري. أنت تحولني رماداً ستنثره الريح. ربما ستشم رائحتي في تنفسك، لكني انتهيت تماماً.

هل تتعظ؟

لن أدعوك بعد اليوم حبيبي. قصمت ظهرى، وكبحت جماحي. قسمتني إلى نصفين: نصف يود، ونصف لا يستطيع. عشقتك، لا بل عشقت أفكارك، وظل جسدك بعيداً بعيداً.

لم أحلم بالغرائز كما يمكن أن تفكر، بل حلمت بها كما أريدها أنا، وحلمت بغريزة الفعل. لم يكن هناك فرق بين ما أقوله وأمارسه، وحين عرفتك، جعلتني اثنتين، الغريزة نفسها، والغريزة التي تمنع الأخرى.

جعلتني غبارا أطير مع الريح، وتبخرت أفكاري وأنا أطير. هل هذا يرضيك؟ أجعل من الحكايا معاشاً، وتجعل من الحكايا قضاء وقت. هل هذا يرضيني؟ لا، فهل يرضيك؟

أشعار الغزل لم تثرني، وأغاني الحب لا أرقص عليها، والأرض الرطبة لا فائدة من رطوبتها ما دمت لن تزرع ولن تقلع، وتكتفي بحبات المطر، وتسرح في مقالات تمدح الشتاء.

أنا المطر يا بلال. أنا الرذاذ الذي قصدته، لكنك لا تود أن تبتل، تطالعه من وراء نافذة، أو من خلال شاشة تلفاز، أو تعجن الأفكار برطوبة الجو، فهل تتعظ؟

ثياب الحداد

التقيت بفتاتين. كلاهما تلبس جلباباً وخماراً. سألت الأولى: لماذا تلبسين كل هذا؟ قالت: هكذا أراد أهلي. هكذا أراد اخواني. سألتها: وهل اخوانك مثلك، متدينون؟ قالت: دين عادي. لكنهم أرادوا ثورة من خلالي، فاصبحت أنا غير عادية. سألتها: ما اسمك؟ قالت: معزوزة. قلت: وهل يعزونك إلى هذه الدرجة؟ ضحكت وقالت: كما ترين.

سألت الثانية الأسئلة نفسها. قالت: اسمي فضاء، ولا أرى الفضاء. اسمي لا يطابق جسمي. أرى الناس ولا يروننني. يبتعدون عني حين ألتقيهم. أود لو أكون مثل باقي البشر.

سألتني: ولماذا لا تلبسين مثلما ألبس؟ قلت: أخشى أن أكون مثلك. ربما سأفعل حين تضيق بي الحال، وألبس ثياب الحداد.

ما زلت أحبّ الشتاء

كنت أحب الصيف فيما مضى، وأحب الشتاء كلما انقضى. الصيف فيه حرية، فيه انطلاق، فيه كيف. فيه سهر وكلام وقمر ونجوم. فيه شمس الصباح، وقهوة الصباح على بلكونة مفتوحة.

وأحببت الخريف، فيه تعرٍّ. تخلع بعض الأشجار ثوبها المتسخ. تنتظر الشتاء لتستحم. وتلبس ثوبها من جديد.

وأحببت الربيع. أحببت الكساء الجديد للأرض، وأحببت رطوبة الجو، والشمس التي تختبئ وراء غيوم ناعمة. أحببت الحنّون والزعتر الجبلي.

اليوم أحب الشتاء، فهو يتعلق بمشاعري، يسجن جسدي، ويطلق العنان لأفكاري. الغيوم فيها غطاء، والمطر فيه سقوط وانسياب.

اليوم أعرف كم أحب الشتاء، لأنني عرفتك فيه، لأنني أحببتك فيه. كانت تأتيني رسائل منك لم تكتبها. كانت السماء إباحية. لو تعرف أني أتساقط مع حبات المطر. ربما تصبح أفضل في الشتاء القادم.

أمراض الماضي

من: سامية

إلى: بلال

بلال

فوجئت حين قرأت في صفحة الكترونية صادرة عن منظمة أوروبية أن أمراض الماضي تعود من جديد إلى منطقتنا.

قالوا باختصار إن عدم استخدام المواصلات العامة الحديثة بسبب الحواجز على الطرقات هو سبب الأمراض. قالوا إن استبدال وسائل المواصلات الحديثة بالتقليدية قبل ما يزيد على مائة عام هو السبب، من هذه الوسائل: الحمير والبغال، والعربات التي يجرها أفراد.

قالوا إن الاكتظاظ في وسائل المواصلات هو سبب أيضاً. قالوا إن اختلاط الناس المكثف هو سبب آخر. قالوا إن الأمراض الحديثة القديمة هي: الجرب، الفطريات، السل.

ولم ينسوا الأمراض الحديثة أيضاً من سرطانات وجلطات قلبية وروماتيزم وغيرها.

يعني يا بلال، مجتمعنا يعيش في الماضي وفي الحاضر.

لا تسألني عن الأمراض النفسية، فهذه خارج الحسبان بالنسبة لمنطقتنا.

الحمار أولاً

من: سامية
إلى: بلال

بلال،

أقرأ في صفحة الكترونية أخرى جاءت هذه المرة من غزة.
ارتفعت أسعار الحمير بنسبة تزيد على 70% من سعرها الأصلي، وأصبح اليوم يزيد على خمسمائة دينار أردني للحمار الواحد.
إن ارتفاع سعر الحمير في غزة يشير إلى نمو اقتصادي غير مألوف في هذا القطاع منذ فترة طويلة، قابلها نمو لهذا السعر في الضفة منذ إقامة الحواجز فيها في بداية الانتفاضة الثانية.
وقد ارتبطت الفترة الأولى بالدعم الإنساني الذي قدمته الدول الأوروبية والأمريكية للشعب الفلسطيني في الضفة، بينما ارتبطت الفترة الثانية بمثلها في غزة.
وهذا يشير حسب رأي المصدر، إلى أن الحياة تعود من جديد لتعيد للحمار اعتباره بعد فترة نسيان طويلة، فالحمار قد تم إنكار دوره في بناء الحضارة الإنسانية في بلادنا، فعلى أكتافه، وعلى ظهره تم تسلق الجبال والنقل.
وعلى عكس ما يحدث في غزة اليوم، إذ اكتفت إسرائيل بمنع استيراد الحمير من الوطن العربي، واقترحت أن يتم ذلك من قبرص عن طريق تركيا، باعتبار أن الحمار القبرصي الأكبر حجماً كان له دور بين البغل والحمار. فإن ما جرى في الضفة هو اعتقال أي شخص يتضح أنه يسلك بحماره طريقاً غير الطرق الرسمية.
وتحت حجة المحافظة على حقوق الحيوان، بدأت إسرائيل بمخالفة كل من ينقل حمولة زائدة في البشر أو البضاعة.
وهناك نكات كثيرة ليس هناك المجال لذكرها كلها. منها أن الدول التي تشبه دولتنا، تسعى لأن تقيم منظمة الدول المنتجة للحمير، خاصة وأن كبار الرأسماليين بدأوا بإقامة المزارع الواسعة لاستثمار أوسع، بل اكتتبت أسهما لهذا الغرض. كما سيتم استبدال دية المقتول بخمسين حماراً.
وصلتني مؤخراً رسالة من صديق جاءته من صديقه، نقلاً (كما قال) عن "ذي اندبندنت" بأن عصر الحمير سيعود، وإن اسم المنظمة الجديدة هي "حوبك". وختم مقالته بالقول "أهلاً بالحمير"، " لنقم بتخصيب البرسيم".

ليتني كنت أكبر

من: سامية
إلى: بلال
حلمت أني كبرت قليلاً، وأنك صغرت قليلا، وتلاقينا في عمر يقبل به المجتمع، فكنت كرائحة الطيون في الصيف. كالياسمين، والنعناع، وكرائحة الميرمية، وأول المطر، ومنتصفه، وآخره، وكنا معاً كرائحة الليمون.

كنت كلون الشيء الجميل الذي أحلم به، وكنت أنا بلا لون. لون لا تعرفه، وبدأت تدركه.

ماذا يفيد الفرق في العمر بيننا؟ فلن تغيب ولن أغيب. جسدي يؤهلني لأكون لك، وأنت كذلك.
دعنا نعش مع الحياة، ومع موسيقاها. أخشى أن ينتهي العمر ولا نعيش، فهل نعيش؟
أنا قررت أن أبقى، فاذهب إن شئت.

سامية،
كنت أعتقد أنني أكثر صلابة مما أنا عليه اليوم، لكني اكشتفت أني ما زلت طفلا، وما دمت كذلك، ولا يمكن أن أغير نفسي بعد هذا العمر، فلأعرّف نفسي بهذا الشكل وكفى. إذا كان أحد يحبني لهذه السمات فليكن، وإذا كرهني أحدهم لهذه السمات فليكن، فالعمر لم يبق فيه لأتغير. سأكون كما أنا، وهذه ليست سوى لحظات ضعف تعبر عن قوتي كإنسان.

بلال،
أنا أحبك لهذا. هذا ما أحبه فيك. يا زورق: لا تتخيل كم أنت تعيش وتسكن فـــيّ، اليـــوم إنفشيت في زوجي. قلت له: زهقت الحياة البليدة التي تود أن أعيشها. أنا إنســـانة مثلـــي مثلك. سأعيش فقط كما يحلو لي، وليس كما يحلو لك.

سامية،
أنت يا شاطئ تشعرينني في كل مرة بضعفي. أنا لا أستطيع فعل ما تفعلينه. تصـــوري أن موقفي يتغير حين تحدث أمور مشابهة مع أخواتي. أضطر حينها لأكون واقعيـــاً، يعنـــي رجعياً، يعني أعود لأفكر كما تفرض البيئة عليهن.

بلال،
حين رأيت دموعك، أصابتني بجرح في قلبي. لم أنم تلك الليلة. معقول يا شاطئ تبكين رجلاً اسمه زورق. لو لم يكن لي مكان عندك لما بكيت. حسبت أن الرجال لا يبكون بهذه الطريقة. احببتك حين رأيت دموعك.

سامية،
أعرف مدى الطاقة الكامنة في جسدك وروحك. لو كنت في مثل سنك، لفعلت الكثير، لكن العمر له أحكام يا شاطئ. لا أستطيع سوى أن أتمنى لك التوفيق. ثقي بي يا شاطئ. سأكون إلى جانبك إذا كانت هناك حاجة لوجودي.

بلال،
أنت تسكن قلبي، وتنام في عينيّ. لو تعرف كم أثرت فيّ. قويت من عزيمتي. يجب أن يرى العالم كما أنا قوية، وإن زواجي أو أهلي لن يمنعوني من أكون شيئا مهماً.

من: سامية
إلى: بلال

بلال

كنت أفكر قبل أن أتعرف عليك، أنني بدأت حياتي بشكل خاطئ، ولا أستطيع أن أكملها. كان الجميع يضغط عليّ حتى أتحمل أكثر، وكنت أعتقد أن الأوضاع ستتحسن. في كل لحظة فكرت أن أغيّر حياتي بالكامل، أن أبدأ حياتي بشكل جديد. شعر أهلي بهذا الأمر فضغطوا عليّ أكثر.

أتيحت لي الفرصة لأسافر إلى أمريكا. أسافر أنا وزوجي. الفيزا كانت شبه جاهزة، لكني ترددت.

حين قابلتك، أعدت لي الحياة. أعرف أننا لا نستطيع أن نتزوج، فلا أنت تريد ذلك ولا أنا، لكن الغبار الذي يغطي جنونك يعود من جديد. أراه، أزيله، ويعود يتكون من جديد. أنت بحاجة إلى بيئة مختلفة لتصبح مبدعاً. عقلانيتك وعقلانية صاحبك زياد تقتلني.

اعذرني. من الأفضل أن أتعرف على واحد لنتغير، لكن الاثنين معاً أمر صعب. تشدّان بعضكما إلى الوراء. متأسف، لا استطيع أن أعيش معك كما أنت. أنا قررت المغامرة. أنت تشجعني على ذلك حتى لو لم تقله. أرى ذلك في عيونك.

من: سامية
إلى: بلال
بلال
أكاد أصاب بالجنون فعلاً
أرسل لك هذه الرسالة بالبريد الالكتروني
لا أستطيع محادثتك بال "MSN". اعتقدت في البداية أن السبب في ذلك هو خلل في ال Internet. لكن بعد الاتصال هاتفياً بالشركة المزودة لنا تبين أن ذلك قرار صدر عن وزارة الداخلية في الوطن، وأن فتوى كانت صدرت من مفتي الديار الإسلامية تحظر استخدام هذه الخدمة. بيّن ذلك في خطبة الجمعة الماضية في الأقصى.
اعتقدت في البداية أنك هجرتني، لقد علمتني أنواعاً جديدة من الشتائم أكيل بها إليك عندما تهجرني في الماسنجر، قال "واهجروهن في المضاجع" وليس في الماسنجر.
اعتقد المفتي، حسب جريدة العودة التي أتصفحها الآن، أن هذه الخدمة تنشر الأخلاق الفاسدة بين أبنائنا وبناتنا، فهم يبدأون نقاشهم من فوق ثم ينحدرون إلى تحت، ثم يدخلون في التفاصيل.
وأوضح مدير عام ديوان الموظفين أن هذه الخدمة تعمل على تعطيل أداء المستخدمين في وظائفهم.
وأوضح أمين عام المجلس التشريعي أن هذا الأمر ستتم مناقشته في المجلس.
هذا وقد تجمع قلة من أشباه المثقفين أمام مبنى وزارة الأوقاف محتجين على ذلك، منهم منيب السمراوي، وعماد مرماش، وسائد حزانا. أما المثقفون الذين تعرفهم فلم نسمع صوتهم أبداً، ويبدو أنهم لا يعرفون هذا البرنامج، فلا يستطيعون التعليق عليه.

لا أستطيع مراسلتك عبر هذه الخدمة، وبالتالي سأستخدم الإيميل للاتصال بك.
يبدو لي يا بلال أن فتح تنافس حماس في أيهما يكون أكثر تشدداً في "المعايير الأخلاقية"، وفي التمسك بالدين.
يبدو أن مشروع دولتنا العلمانية في خطر.
أكاد أفهم حذرك من اللقاء بي.
كنت أشك في أنك ما زلت متأثراً بطقوس العمل السري.
كنت أشك في أنك تعيش هذيان المداهمات والاعتقالات.
يبدو أنك لا تستطيع الخروج من دائرة الهواجس الوطنية والحس الأمني.

يبدو الأمر لي الآن حقيقة.
من الصعب أن أعيش في بلد كهذا.

من: سامية
إلى: بلال

بلال
سأرحل، لكني سأرجع في يوم ما
سأرحل إلى جنوب افريقيا لأتعلم منهم كيف نكون مناضلين من أجل المساواة
سأتعلم كيف يعيشون مع الآخر
سأتعلم كيف يمكن أن يقبل القادمون بالمقيمين
سأظل أحبك
ستسأل ما هو مصير علاقتي بزوجي
أبشرّك بأني طلقت
فهو يريدني مجرد قطعة أثاث أو زينة في بيته
افترقنا، ولم يدفع ثمن قراره
توسطت عند أجهزة الأمن، فلم تفعل شيئاً حتى الآن
الأمر لا يتعلق بمن له الحق حسب الشرع والقانون
الأمر يتعلق بمن يملك علاقات أقوى مع هذه الأجهزة
سأرحل
لكني سأرجع
اتصلت بسما. قالت: سألحق بك في يوم ما.
اتصلت بساما، قالت: أنا في رحلة إلى أمريكا اللاتينية.
أنا متاكدة من أنك تفكر مثلي، ولكنك تريد من يقودك.
أنت يا بلال ممكن أن تُحَب، لكن من الصعب أن تَحب.
أنا أحببتك يا صديقي
إلى اللقاء.

من: بلال
إلى: سامية

سامية
ربما كلنا بدأ حياته بشكل خاطئ، لأن هناك ما هو أفضل. أنا يا سامية أخاف عليك، أعرف كثيرات بدأن بالصورة نفسها، وشعرن بأنهن أفضل من هذا الوضع، فانقلبت حياتهن الى الأحسن أو الأسوأ، ويا سامية، أريد أن تكوني أفضل، ولكني أخشى عليك. ربما تلاحظين بعض الحذر عندي، وهذا أمر مشروع، لأنه ليس من السهل أن يقلب الإنسان حياته رأسا على عقب، لذلك يبدو عليّ كما تلاحظين أنني تحولت من الثورة إلى التغيير الإيجابي التدريجي، لكن في داخلي ثورة.
يا سامية كل الناس يحبون الجنون، يحبون جنون الآخرين، وبعض الأحيان جنونهم، لأن الجنون هو موضوع لإعجاب الناس، يتندرون به، ويودون أحياناً لو يمارسونه، لكنهم يعودون إلى الحياة العادية. ينسحبون نحو ذواتهم، لأنهم جبناء، ويمارسون الجنون الصغير، في الأكل وفي الجنس، وفي الأحلام، وحين ينكشف جنون الآخرين، يقولون: قلنالك: لا "تنجن".
الجنون محبوب، وفي حالتي يجب أن أكون مجنوناً. كثيرون سألوني: ألهذا الحد تعرف الحياة؟ قلت لهم: لا، أنا مجنون في أفكاري.
قالوا: كذاب، أنت كنت مجنوناً في الخليج، وفي أوروبا وفي أمريكا، وفي رام الله، وفي بيرزيت. أنت تحمل الجنون تحت بشرتك.
قلت: كانت حياتي عادية. قالوا: بل كانت غير عادية، كانت جنوناً.
في إحدى الجلسات قالوا: أنت تبدو مثل السكران، وأنت صاح، فكيف إذا سكرت؟ قلت: أصبح أكثر عقلانية.

من: سامية
إلى: بلال

بلال
أتابع مؤتمر أنابوليس. أتابع خطابات الرؤساء. لهجة بوش تنم عن مأزق، ولهجة أبو مازن تنم عن رغبة في التصالح، ولهجة أولمرت تنم عن الخوف، تصوّر!
حكومة تحتلنا وتخاف منا. باراك لم يستطع صنع السلام، ولا نتنياهو، وبيرس، رابين، شامير. كلهم لم يستطيعوا صنع السلام
نتوه في رحلات بين شرم الشيخ وطابا والعقبة والبحر الميت، وواي بلانتيشن، وكامب ديفيد، ومدريد. لا نعرف في أي المحطات نحط. هم يضيّعون الوقت ونحن نضيعه. أنا مجنونة، فليكن، لا يمكن صنع السلام بهذه الطريقة.
يجب أن نزيل خوفهم. يجب أن نحب العيش معهم، في دولة واحدة، لنا ولهم. سننتصر أسرع من هذا الطريق التائه. إنه يشبه الطريق الذي سلكته في محبتك، وأنت تصر على صداقتي. لم أنل المحبة، ولم تنل الصداقة.
الطريق الذي اخترته أنا أفضل من طريقك المعوجّ. الطريق الذي ليس فيه أي مخرج. أنت تضيع بين الحب والصداقة. أنا الآن أعرف طريقي جيداً. سأحبك رغماً عنك كما يقول كاظم الساهر، وسنقيم دولة واحدة رغماً عنهم، واللي مش عاجبة يشرب من البحر الميت. هذا البحر سنحييه، وكل ما عدا ذلك فانه مثل أجسادنا. أجسادنا ستنتهي، وروحنا ستبقى. ستبقى ذكرانا لأننا قلنا كلمة حق في وقت ضاع فيه الحق.

من: بلال
إلى: سامية

سامية،
سوف أظل أذكرك، مع كل اطلالة شمس، مع غسق الفجر، والحلم الجميل، ونسيم الصباح، وكل دفقة قلب، وكل ميلان ورق الشجر، وكل لحظة سكون، وزقزقة عصفور. كلما هبت الرياح، وكلما سكنت، وكلما تحرك الرمل أو سكن، ومع حركة الشفاه، وسكونها، مع كل شيء.

استمعت اليوم إلى صوت ماجدة الرومي وهي تغني: اعتزلت الغرام. دققت في كلماتها، فاكتشفت أنها لم تعتزله. واكتشفت أنها ليست هادئة كما ادعيت، بل تحمل في داخلها ثورة مثل ثورتي. عاشت مع زوجها فترة، ثم وجدا أن الفراق هو الحل. أحب أن استمع إلى أنغام وهي تغني "أحب نفسي". هل استمعت إلى أصالة وهي تغني "حياتي"؟

مع السلامة

من: بلال
إلى: زياد

زياد

إلى متى ستظل تتفلسف عليّ؟
كلما ذكرت لك أمراً، تروح تغوص في جانب منه، وتظهر ما هو إيجابي فيه.
تهرب من المزاحمة، تهرب من المظاهرات والمسيرات، تهرب من أخبار القتل والإجرام
تتطهر بالأشياء الصغيرة: تزرع وردة، وتربي هرة، وتطرب لرقص لا تفهم معناه أو تفهمه، تتابع برامج الرياضة، وتستمتع بكلام لطيف يقال في المجالس.
تدور بكاميرا لتلتقط صورة لجبل أو شجرة أو صخرة
وتعرضها في مركز خليل السكاكيني، لتظهر للناس أن هناك وجها آخر للحياة
يكون الناس في أوج توترهم، وأنت تكون هادئاً، وتحاول تجفيف قلقهم
تظهر للناس أنك أكثر تصالحاً مع نفسك
لكنك أنت نفسك تهرب من الواقع، فلا تواجهه
أنت تواجهه بالمحبة كما يقال
نعم، ها هي سامية تفعل الشيء نفسه بطريقة أخرى
دعنا نعترف يا زياد أن سامية أكثر جرأة منا
كلانا يتردد مئات المرات لو حاول أن يقول كلمة غير مقبولة للمجتمع
لكن سامية تقولها بكل أريحية
تقولها وتمشي، لا يهمها شيء
نحن نموت من الضحك وهي تقول ذلك، مستغربين، ومشجعين لها لتقول أكثر
إنها ترى ما لا نرى
إلى متى سنظل نسير على هامش الحياة، وعلى هامش الموت، وعلى هامش الفعل
لنعترف يا زياد أن مؤسستينا لم تفعلا الشيء الكثير
كانتا مجرد ملتقيين للناس
يتعرفون، يناقشون، يأكلون، ويخرجون
ستقول لي: هذا بحد ذاته إنجاز
نعم، إنه إنجاز، لكنه لن يغير الكثير في المجتمع
نحن نعمل بين الجماهير من تحت
لقد كرهت الجماهير هذا النوع من الفعل
هم يريدون أن يتم الفعل من فوق
ستفلسف الأمور، وتقول لي: كلنا يحب الفعل من تحت
لكن سامية تبدأ الفعل من فوق، لتصل إلى تحت
أليس ذلك أجمل حتى من الناحية التي تفكر بها
إلى متى سنظل نعيش على هامش الحياة؟

من: زياد
إلى: بلال

بلال

لا أعرف ما هو السر في استمرار علاقتنا على مدى ثلاثة عقود، وما هو السر الذي جمع مؤسستينا في البناية نفسها، وفي اهتمامنا بتغيير ثقافة المجتمع، وحواراتنا الصباحية في كل شيء.
نحن نعيش معاً أكثر مما يعيش كل منا مع زوجته. نذكر زوجاتنا بكل محبة، وندخل في تفاصيل خلافاتنا الصغيرة، لكنا نتحدث عن هنا، وهالة، وهانية، ونتحدث عن سما، وساما، وسامية. نتحدث عن كل هؤلاء أكثر. إنهن جزء من حياتنا كما زوجاتنا جزء آخر. الفرق هو أن هؤلاء جزء مشترك من حياتنا. لا أحتاج لأن أخبرك عمّا جرى بيني وبينهم، فأنت تعرف التفاصيل دون أن أذكرها.
قصتي مع هانية تشبه بالضبط قصتك مع سامية. تعبت كثيراً وأنا ألتقي بها كل يوم، وفي النهاية قلت لها: حلي عني، دعيني أعيش حياتي الهانئة. قالت لي: وأنا هانئة. قلت لها: لا أستطيع مجاراتك. حلّت عني في النهاية، لكن كلما التقت بي، تعاتبني بنظراتها، وتود لو تمتلكني.
أنا أختصر رؤيتي بجملة واحدة: أريد أن أعيش ما تبقى من حياتي بهدوء. لا أريد أن يخدش أحد خصوصيتي. أخشى أن أندمج في حياة هؤلاء، وأجد أن العمر قد مضى، لكن، أنا مثلك ربما. تجد في العمل الجماهيري متعة، وتبرر لنفسك بأن هذه هي الحياة.
أنا لا أحب المغامرة مثلك. احترم هؤلاء، وأحترم رؤيتك، فاحترموا رؤيتي. ربما تأتي الأيام، لنتيقن كم هي الحياة جميلة بهذه المغامرة، لكني أريد مغامرات محسوبة. كم أكره الحساب. أود أن أعيش حياتي.

الله

سألت زياد مرة: هل تصلي؟

- أصلي بطريقتي
- ما هي طريقتك؟
- أسترخي، وأتامل في نفسي وفيما حولي.
- يعني أنت متدين؟
- طبعاً، مثل تديّن أمي.
- وكيف يكون تديّن أمك؟
- ترى في الله كل ما هو جميل.
- يعني يختلف عن تديّن البشر الذين حولنا؟
- طبعاً. هي لا تعتبرهم متدينين، بل متسترين وراء الدين.

سألني هو هذه المرة: هل تصلي؟

- من وقت لآخر.
- لماذا تصلي؟
- لأني أحب أن أرى الألوان التي لا أراها.
- لكني أراك أحياناً لا تصوم ولا تصلي.
- نعم.
- لماذا؟
- حتى أرى الألوان التي لا أراها.
- ها هي سامية قد أثرت فيك.
- بالضبط مثلما أثرت فيك هانية.

تطلّع في. دقق النظر، وقال: وماله؟

من: هانية
إلى: زياد

عزيزي زياد
لو قلت ألف لا، أحبك. لو خبأت راسك في الرمال أراك. لو تلونت بألف لون، أرى ألواناً غيرها. أنت تفتح الأبواب على مصراعيها نحو الحرية الفردية، نحو الانفتاح على الآخر، وتغلقها أمامي.
أنت مجرد إنسان متناقض. منفتح، ومتفتح، ومنتقد، ورومانسي، وطبيعي، ومرتعش من داخلك، لكنك في الواقع محافظ أشد المحافظة، تتغنى بكلمات لست تعنيها كما كتبها نزار قباني، وقالتها نجاة الصغيرة. تريد أن تختبر نفسك، تحقق ذاتك، بأنك تستطيع امتلاك الآخر، وحين يقبل الآخر بك، حين يقبل عليك، تصده. لست أنت الوحيد الذي يعاني الشيء نفسه. قرأت أن هذه أزمة المثقفين في الوطن العربي وفي فلسطين بالذات، تقولون ما لا تفعلون.
أعرف آخرين، لكنهم ليسوا بالنقاء نفسه، ليسوا مثلنا، الذين مثلنا هم الذين يجب أن يكونوا قادة في الثقافة، ليس بالحكي، وإنما بالعمل. لا أعرف أيهما يشد الآخر إلى تحت؟ أنت أم بلال؟ دائماً تقول قولك المشهور "اللي مثلنا". من هم الذين مثلكم أو مثلنا؟ إنهم مجرد إناس يعيشون على هامش الحياة. ليس لهم امتداد.
قل لي بالله، الذي تؤمن به أنت، قل لي: كيف ستدافع عن "اللي مثلنا" لو جاء الطوفان؟ ستغلق عليك الباب أكثر وأكثر. ستصبح مثل سما صديقة بلال. أدعوك أن تصحو من غفوتك، فإن لم تفعل في ثقافة البشر من تحت، ومن فوق، فسيصوغ الآخرون ثقافتك.
إلى اللقاء

من: سامية
إلى: زياد

عزيزي زياد
دع الأيام تفعل فعلها فيك وفي بلال. إن كانت هناك فروق بينكما فهي صغيرة. حكاياتك مع الكثيرات أعرفها، وأعرف أنك تعرف حكايتي مع بلال. لا يهمني هذا الأمر كثيراً. اعتقدت هنيهة، وأنت تحب أن استخدم هذه الكلمة، اعتقدت أنك تستطيع ما لم يستطعه بلال، واكتشفت أنك تعاني من الجبن نفسه. أسمع كلامك يعجبني، أرى أفعالك فأصدم.
ماذا فعلتما لي وأنا أناديكما أن نعيش معاً؟ ماذا فعلتما لي في حالة طلاقي، وفي بؤسي، وفرحي، وطيراني؟ لا شيء، ولن تستطيعا. ضحيت بكل شيء ولا مجيب. ضحيت بجسدي، وبمشاعري، ولم تسمعوا صرخاتي.
اعتقدت أن الرجال يستطيعون ما لا نستطيع. أعتقدت أني لو عشت جارية في زمن هارون الرشيد لكنت أفضل، لكنكما لستم هارون ولا الرشيد.
أقرأ اليوم كم كانت النساء هن اللواتي يحملن لواء التغيير، وكان الرجال هم الذين يعيقونه وها أنتما مثالان حيّان على ما أقول. أتعتقد أني سأظل أنتظر حتى تتغيرا، أو يتغير الذين "مثلكما"؟ "عيش يا قديش". ما زال الأمر بأيديكما، فالمركب سيسير، وستلحقون به. لقد تعلمت الرقص الإفريقي، إنه جميل، يترك الحرية للجسد كله، ويترك الحرية للنفس كلها. أنا سأستمتع بالحياة، كما أفعل الآن. لو كنتما معي، لكانت الحياة أكثر متعة.

تصميم الغلاف: مارا السامرائي

بلال وزياد، بدأا حياتهما مناضليْن، وتحوّلا بعد أوسلو إلى مثقّفيْن من خلال عملهما في منظّمات غير حكوميّة. بدأا بين الجماهير، وتوهّما أنهما ما زالا بينها. هذه الرواية تتناول علاقة بلال بثلاث نساء، سما في مرحلة الانتفاضة الأولى، وساما «العائدة» بعد اتّفاق أوسلو، وسامية في الانتفاضة الثانية. بالموازاة مع ذلك أقام زياد علاقةً بثلاث نساء (هنا، هالة، هانية). ووجدا نفسيهما حبيسيْ مؤسّستيهما والمجتمع، بين الكتب والجمهور الذي لا يستطيعان الوصولَ إليه، وبين متطلّبات المانحين. هناك علاقة حبّ تجمعهما بالجنس الآخر، لكنّ سامية الجموحة تكسر حواجزَ العقلانيّة إلى ما يشبه الجنون، دون أن يستطيعا مواكبتها رغم جنونهما الذي غطّاه الغبار.

صافي صافي: كاتب وروائيّ فلسطينيّ، يعمل في التدريس في جامعة بيرزيت. صدرتْ له ستّ روايات، منها: «الحاج إسماعيل» (جائزة اتّحاد الكتّاب الفلسطينيّين)، «الحلم المسروق»، «شهاب» و«الكوربة».

ISBN: 978-9953-89-151-4

9 789953 891514

دار الآداب